المبحث الثالث

طباع المرأة وأثرها فى عاطفة الحب

موضوعان مؤتلفان ائتلاف السّدى واللحمة فى أى نسيج ، لابد للباحث أن يتناولهما فى حديث واحد رغم أن كلاً منهما جدير بأن يُفرد له مبحث خاص ، وذلك لاستحالة الفصل عمليا بينهما . فالرجل لايتحدث عن طباع المرة التى يحبها إلا إذا قرن حديثه غالبا بوصف ما يحسّه من آثار هذه الطباع على نفسه وانعكاسها على أحواله ومسلكه .

وبمثل تواصل هذين الموضوعين وتداخلهما ، تتواصل آراء الناس على اختلاف الزمان والمكان ، وتصل إلى درجة بعيدة من التقارب تبلغ حد التماثل فى كثير من الأحوال ، وهذا يفرض على أى دارس يتناول هذا الموضوع ، منهجا آخر يلغى حدود الزمان والمكان لينتفع بالقديم والحديث معا ، يضع كلا منهما بجوار الآخر وبإزائه ، فيؤصل عناصر موضوعه من جهة ويتبين مدى تواصل الإحساس الإنسانى من جهة أخرى .

ولقد قيل الكثير فى وصف أخلاق المرأة وطباعها . وأكثر ما قيل جاء على لسان الرجل معبراً عن رأيه فيها . ولا شك فى أن بعض هذه الآراء تولّد عن ملاحظة أحوال المرأة عامة أو عن تجربة خاصة معها . ولا شك أيضاً فى أن بعض هذه الآراء يصور إحساسا وقتيا أو انفعالا لحظيا ، فهو مرهون بظروفه والعنصر الذاتى فيه يغلب إلى حد بعيد ، ما قد نجده فيه من موضوعيّة تصلح لتأسيس قانون عام ، أو حتى نظرية يمكن إثبات صحتها . ودليل ذلك ما نجده من تناقض فى موقف وآراء الرجل الواحد بإزاء المرأة ، فهو يتقلب فى الحكم عليها بحسب ما تتقلّب علاقته بها إن رضاً أو سخطاً .

لكننا ـ ونحن نعى هذا كله ـ نجد تواترا وتكرارا وإلحاحا على وصف المرأة بصفات محددة . وهذا التكرار والتواتر ، يبعث بلا شك إحساسا بتأصّل هذه الصفات فى نفس المرأة وطبعها ، وبنزولها منها منزلة الأوصاف الخلقية والمعالم الجسدية الخاصة التى تنماز بها عن الرجل . وكأن على الرجل أن يعى كل هذه

الصفات ويقف على كل هذه الطبائع متى قُدّر له أن يخوض تجربة مع المرأة . فدرايته بأحوالها عونٌ على تدبّر أمره معها .

وفى هذا الفصل أعرض من صفات المرأة وطباعها ما أراه جديراً بالعناية (وما أثرى معانى الحب فى الشعر العربى) . وكما أسلفت فى مستهل البحث ، لن ينصب اهتمامى إلّا على ما أراه جوهرا وركيزة يؤسّس عليها ، لا عَرَضًا يظهر ويختفى .

أوّلا : المرأة والمرآة

المرآة هنا رمز لكل ما يجلو محاسن المرأة ومفاتنها ، أو يُطربها ويذيعها فيشد الأنظار إليها . ومباهاة المرأة بحسنها ورغبتها فى إشاعته وإطرائه - كما تذكر الدراسات النفسية - طبع يتشكل مع تشكل جسد المرأة فى مراحله الأولى وسنوات عمرها الباكرة ، حتى إن البنت صغيرة السن ، لتدرك أن جمالها سبيلٌ إلى إعجاب الآخرين ، فتهتم به وتحاول إظهاره وكأنها تعرض نفسها على الناس موضوعا للحب . [1] ويذكر علماء النفس أن الفتاة فى سن الثامنة مثلا ، لديها إدراك عجيب لوظيفة المرأة الاجتماعية وموقفها العاطفى ، بوصفها "مطلوبة" لا طالبةً و "معشوقة" لا عاشقة . وهذا الإدراك يجعل الفتاة تتجه فى سن مبكرة إلى الاهتمام بهندامها ومظهرها ، وقد يصل الأمر بها إلى نرجسيّة مبكرة وولع بجمالها ومفاتنها[2] وهذه النرجسية المبكرة عند الطفلة لا تلبث أن تأخذ عند الفتاة بعد بلوغها مسلكا عمليا ، إذ تتخذ من أدوات الزينة وسيلة ، لإشباع غرورها وحاجتها إلى أن تبدو جميلة .[3] ويترتب على هذا العشق الذاتى ، أن تطيل الفتاة تأمل نفسها أمام المرآة مستحسنة قوامها وتفصيل جسدها . وهى إذ تفعل ذلك لا تسعى لأسر الرجل وجذب انتباهه فحسب ، وإنما لتؤكد ، لنفسها أيضاً أنها جميلة فاتنة [4] .

وقد فسّر بعض علماء النفس نشأة هذه النرجسيّة عند المرأة بأنها وليدة

تكوينها (البيولوچى) ، وفسّرها بعضهم بأنها ثمرة التربية الاجتماعية ، بينما عزاها فريق ثالث إلى العاملين معا ، لأن المربيّن لا يمكن أن يفرضوا على الفتاة نظاماً تربوياً يتعارض تعارضا جوهريا مع تكوينها البيولوچى ، وإن كان هناك تفاوت فى ذلك بين مجتمع وآخر [٥] .

أيًا ما كان أمر نشأة هذا الاهتمام عند المرأة والتفاتها لبكر إلى مفاتنها ، فإن الشىء المتيقّن فى معظم المجتمعات أنها لا تستطيع أن تعبّر صراحة عن حاجتها إلى الرجل وميلها الفطرى إليه . وكل ما تستطيعه أن تضع نفسها فى الموضع الذى تستثيره منه ، وتهيىء ما فى حوزتها أو تقدر عليه ، للفت نظره إليها وتحريك اهتمامه بها . فإن هذا - كما يذكر علماء النفس - هو الأسلوب الوحيد الذى قد تسمح به ظروفها السيكولوچية والاجتماعية للتعبير عن عواطفها ورغباتها الباطنة ، هذه الظروف التى قضت عليها بأن تكون أمام الرجل فى موضع الانتظار والتوقّع السلبية ، بينما ألقت فى يد الرجل زمام المبادرة ، وجعلته يتسم بالجرأة فى التعبير عن رغائبه وطلب ما يشبع به حاجاته[٦] .

المرأة إذن لا تستطيع مبادرة الرجل فتكاشفه بعواطفها نحوه وحاجتها إليه ، لكنها قادرة على أن تبلغه هذه الحاجة بما لديها من وسائل ، توحى بها إليه أو تحثه على المبادأة التى جُعلت له وحرمت هى منها . ووسائلها إما النظرة المعبّرة الموحية ، تُودعها كل خلجات نفسها ، وإما ما وُهبت من أدلة الحسى ومعالم الفتنة .

والنظرة قد لا تقدر عليها فى كل الأحوال خشية افتضاح أمرها ، لأنها نافذة مباشرة على القلب ، تُفشى المخبوء من أسراره . لهذا كانت بثنة - كما يذكر جميل - تحذّره من أن ينظر إليها وهما على مرأى من الناس ، فتقول له:[٧]

وطرْفَكَ إمّا جئتنا فاحفظنّهُ ... فزيغُ الهوى بادٍ لمن يتبصّرُ

وأعرض إذا لاقيتَ عينا تخافها وظاهر ببغض ، إن ذلك أسترُ

خوفا من أن يدرك الناس من خلال نظراته ، مكنون قلبه وحقيقة شعوره . وكان جميل يطمئنها ويجيبها إلى ذلك فيقول لها :

سأمنح طرفي حين ألقاكِ غيركمْ لكيما يروا أن الهوى حيث أنظرُ

والنظرة حين تصدر عن عاطفة صادقة وإحساس غالب ، أكثر صراحة وإبانة من اللفظ ، الذى يستطيع الإنسان أن يسلك به من سبل الرمز والتورية وضروب المواربة ما يُخفى به مقصده . لهذا لا يكاد يبقى للمرأة غير ما أوتيت من جمال ، تتخذه رسولا يوقظ سبات الرجل ، وشراكا تبثها فى طريقه ، فلا يليث أن يعثَر بها ، ويسعى إلى كسب ودّها .

وبهذا ، تنتزع المرأة فى الحقيقة من الرجل ، زمام المبادرة وتتحَول إلى (فاعلة) ، وإن كان الرجل يبدو فى ظاهر الأمر ، صاحب الخطوة الأولى فى عقد الآصرة بينه وبين المرأة على المستوى الاجتماعي . وهكذا تبدو المرأة فيما يشرح مسلكها مع الرجل ، مهتمة باستمالته إليها ، حتى وصف نزوعها إلى ذلك بأنه غريزة مُركّبة فيها . ووسيلتها إلى جذب الرجل ما تتمتع به من جمال تبهربه حواسه[٨] . وكيف لا تتوسل المرأة بحُسن صورتها وهي تسمع على أفواه الرجال ، بل أفواه بنات جنسها أيضاً فى كل مكان وزمان ، ما يؤكد مضاءه فى غزو الأفئدة واستمالة النفوس !؟

ولو أننا أثبتنا فى هذا المقام كل ما وقفنا عليه فى ذلك من أقوال الحكماء والفلاسفة وغيرهم ، لسطّرنا مجلدا ضخماً . لكّننا نكتفى بالنزر من ذلك على سبيل الرمز .

من طريف ما جاء فى امتداح حُسن النساء عامة ، قول أحد شعراء الفُرس الأقدمين : " إن الله عندما أراد أن يخلق المرأة جمع رقة النسيم وأريج

البنفسج ونور الشمس وابتسامة الربيع وخلق منها المرأة "[٩] وقول نابليون " الرجل نثر الخالق و المرأة شعره "[١٠].

وهذه الأقوال ومثلها كثير ، تعكس ما يحسه الرجال تجاه النساء عامة على اختلاف حظوظهن من الجمال . فهن قد شُكّلن من عناصر تفضُل تلك التى خُلق منها الرجل : رقة طبع وعذوبة وقْع وشفافية جوهر . ومن ثم كثر امتداح جمال المرأة وبيان أثره فى نفس الرجل ، فشبّهت الحسناء بالطير الجميل الألوان يكثر مطاردوه [١١] وجُعل جمال المرأة مصدر أنوثتها الوحيد ، فهى حين تفقد الجمال تلتمس ما ينبل به الرجال[١٢] وكأنها فقدت مع الجمال أنوثتها وكل ما تتحلّى به المرأة فى عين الرجل .

وقد كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى كثيرا فى فلسفة الحب وبيان أثر جمال المرأة فى وجدان الرجل ، وترك فى ذلك عدة مؤلفات ، هى - فى رأيى - أفضل ما قرأت فى الأدب العربى الحديث ، لا لاستيفائه تفاصيل كثيرة فى هذا الموضوع فحسب ، وإنما لقدرته أيضاً على تحليل شتى العواطف ووصفه القوة الآسرة لجمال المرأة .

ولعل من بديع عباراته فى ذلك قوله لمحبوبته : " إنك تتكلّمين و" تعرفين أن وجهك ينقّح فى معانى كلامك "وهذا القول تأكيد لقول أبى فراس :

أســـاء فزادته الإساءة حظوة ... حبيب على ما كان منه حبيبُ
يعُدّ عـلىّ الواشيان ذنوبـــه ... ومن أين للوجه الجميل ذنوبُ؟!

وقول آخر :

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنه بألـــف شفيعِ

وتنقيح وجه الحسناء كلامها وتقويمه ، قد يفسّر بأن سحر هذا الوجه يأخذ بلب الرجل فلا يكاد يلتفت إلى زلّات لسانها ، وإذا التفت أغضى وصفح ،

وكأن حُسن وجهها شفيع مُطاع . فما أشبه هذا الوجه الحسن بالمصفاة يمر من خلالها كلام المرأة فلا يبلغ أذنىْ الرجل إلاّ رائقاً منَ كل شائبة [١٣].

وللأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى ذلك أفانين من القول ، قد نتعرض لبعضها فى مواضع أخرى . ونكتفى فى هذا المقام بقوله يصفُ غلبة جمال المرأة ومفاتنها على عقل الرجل وقوته : " والحياة تدلّ بالوحش على أنها آكلة هاجمة ، مصممة غير رحيمة ، وأنها الشدة تحت مسّ ليّن ، وأنها القوة الغازية معبأة فى إهاب ، وأنها أسلحة قاطعة من اللحم والدم . فياليت شعرى عنكِ ، هل دلّت اخياة بجمالك الفتان إلا على رقة قاتلة ولين مهلك ولطف معذّب ومعان كالأسلحة فى لحمى ودمى "[١٤] .

فلو أن التفات المرأة إلى جمالها وعشقها له لم يكن طبعاً ولدت به كما تؤكد دراسات علم النفس ، لانغرز فى نفسها بسبب ما تسمع من هيام الرجال به ، أو ما ترى فى حياتها من صور واقعة لهذا الهيام الذى يبلغ حد التدلّه .

ولعل قول بعضهم : " تفضّل المرأة فقد حبيبها على فقد جمالها ، فإنه أسهل عندها أن تضيّع مَنْ تحب ، مِن أن تضيّع ما يحبّب فيها "[١٥] ـ لعله قول صادق إلى حد بعيد متى وُضِعت المرأة فى موضع اختيار ومفاضلة ، واستحال جمعها بين الاثنين .

إذن فالتفات المرأة إلى حسنها غريزة من أهم غرائزها ، ونزوع الرجل إلى هذا الحسن طبع متأصّل فيه ، وهو مظهر من المظاهر العديدة لانخطاف النفس إلى الجميل من كل شىء .يقول ابن حزم الأندلسى : "إن النفس حسنة توقع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه"[١٦] .

لكن هذه الغريزة عند المرأة وعند الرجل ، شأنها شأن غيرها من النزعات الفطرية التى ركّبت فى طبع الإنسان ، لم تترك هملا خرقا من عواقب الاندفاع

فيها وشطط إرخاء العنان لها ، فوُضعت لها ضوابط من الحكمة والشرائع تحقق توازنا تستقيم به الحياة . فلو أن جمال المرأة ومفاتنها الجسدية كانت المعيار الوحيد فى تقويمها والقوة الجاذبة إليها ، لاكتفت المرأة بذلك وأهملت التجمّل بأشياء أخرى تتقوّم بها حياتها فى مختلف أطوارها ، بل حياة الرجل أيضـ . ولو أن الرجل لا يشده إلى المرأة سوى ما أوتيت من قسمات الوجه وهيئة القوام ، لباءت النسوة اللاتى قل نصيبهن فى الملاحة بالخسران ، برغم ما يتزيّنّ به من حُلىً أخرى . لهذا ولذاك ظهر فى تقويم المرأة عناصر أخرى مثل (العفة) و (رجاحة العقل) ، وغيرها من حلى معنوية وفضائل لا تتعامل مباشرة مع حواس الرجل ولا تشبع نهم غرائزه . ولعل للنساء اللاتى قل حظهن من الجمال ، مساهمة فى ظهور هذه العناصر الترجيحية الجديدة . والباحث فى هذا الموضوع يجد نفسه أمام رأيين : **الأول** ، يغض من قيمة الجمال ويحذر من علاقة تؤسّس عليه . **والثانى** ، يرى ضرورة أن تجمع الحسناء إلى حسنها من الفضائل لأخرى ما تكتمل به محاسنها .

نقرأ للرأى الأول أقوالا مثل :

* " المرأة الجميلة نعيم للعين وجحيم للنفس "(١٧)
* " ليس للعراك ختام عند من يملك امرأة جميلة أو قصرا على الحدود أوكَرْمًا على الطريق "(١٨) .
* " يجب على طالب الزواج أن يتجنب الجمال الفائق ، فإن الجمال يتمحل عقب الامتلاك ولا يلبث بعد أسابيع أن يزول ، فى حين أن مخاطره تبقى ما بقى "(١٩) .
* " هل يدوم حب من يحب شخصا لجماله ؟ كلاّ ، فإن الجدرى الذى ينزع الجمال من محبوبه ينزع كذلك حبه من قلبه "(٢٠) .
* " إن الجمال الذي يخاطب العيون رقية سحر قصيرة المدى ، لأن عين الجسد ليست دائماً عين النفس "(٢١) .

ونقرأ للرأى الثانى مثل :

* " المرأة الجميلة جوهرة ثمينة أما الطيبة القلب فهى كنز ثمين "[٢٢] .

* " إن المثال الأعلى للجمال هو نفس جميلة فى جسد جميل "[٢٣] .

* " متى كان الجمال سمة للنفس الصالحة فهو مرآة تزيد حسن صاحبها "[٢٤] .

* " إن مباهاة المرأة بجمالها إقرار منها بأنه ليس لديها سواه جدير بمباهاتها "[٢٥] .

ونشير إلى أن كثيرا من هذه الأقوال صادر عن نساء ، ولهذا دلالته . وهى فى جملتها حث على التماس صفات جميلة أخرى فى المرأة ، غير صفاتها الجسدية التى لا ينبغى أن تُحسب لها أو عليها ، إذ لابد للإنسان فى تكوين جسده ورسم ملامحه .

لكنّ هذه الأقوال التى تحمل تجارب حكماء الرجال ، وتنم عن باطن كثير من النساء ، لا يلتفت إليها من الرجال إلاّ نفر قليل برغم تيقنهم صحتها ، وهذا لغلبة الطبع على العقل . ولعل هذا ما عَبرت عنه الكاتبة (چينالمبروزو) حين قالت : "إن الرجل يُعجب بأخلاق المرأة الراقية وبذكائها الفائق وبأعمالها العظيمة ، ولكن إعجابه هذا لا يحمله على عشقها والهيام بها : يعجب الرجال مثل النساء بالأخت التى تلقى بنفسها فى الماء لإنقاذ أخيها الصغير ، ويثنون كثير الثناء على الابنة التى تضحى بكل شىء فى خدمة والدها المريض ، ويطالعون بشغف كتابات المرأة النابغة ومباحثها الأدبية و لاجتماعية ، ويعجبون بذوقها الفنى السليم ، ولكنّ قلوبهم لا تخفق حبأبها من أجل ذلك ، ولا هم يأتون الأعمال الجنونية فى سبيل امرأة فاضلة كما يفعلون فى سبيل مَنْ سمعوا بمحاسنه وطمعوا فى امتلاكها "[٢٦]

ولا شك فى أن هذا الكلام على جانب كبير من الأهمية . ليس لأنه يقرر

حقيقة نفسية عند الرجل ، إنما لأنه صادر عن امرأة تترجم عن شعور بنات جنسها ، وإدراكهن كُنه تعلّق الرجل بالمرأة . ولهذا لا يمكن أن تجعل المرأةُ - وهى تعى هذا الأمر - ذكاءها وعلمَها وحُسن شمائلها ، عوضا عن جمال الصورة وما يستحث فى الرجل طبعه من علامات الفتنة . وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير حرص المرأة على سفورها ومغالاتها فى إبداء زينتها ، وحرصِ الرجل على ملاحقة الحسناء والاقتران بها ، برغم ما تلقيه الأديان وذوو البصر فى مسامع الرجال والنساء من نصح للحد من غلوائهم . والحسناء التى تستر مفاتنها بغية ثواب الله أو نزولا على عرف أو تقليد ، تجاهد طبيعتها مجاهدة عظيمة ، وهكذا الرجل الذى يغض طرفه ويروض نفسه ، فيحولها إلى عشق الفضيلة فى المرأة وكريم سجاياها . إنها سباحة ضد التيار لا يقدر عليها سوى أولي العزم .

يروى صاحب الأغانى أن عائشة بنت طلحة كانت من أجمل نساء العرب . ويروى أيضاً لتأكيد حسنها الآسر ، أن أبا هريرة - على زهده وتقاه - لمّا وقعت عيناه عليها أخذته محاسنها فجعل يقول : " سبحان الله ! ما أحسن ما غذّاك أهلك ! لكأنما خرجتِ من الجنة "[٢٧] .

ويذكر أن الحارث بن خالد والى مكة فى عهد عبد الملك بن مروان ، كان بين مَن هاموا بحسنها ، وأنها أرسلت إليه ذات يوم تقول وقد أدركتها صلاة الظهر فى أثناء طوافها حول الكعبة : " قد بقى من طوافى شيء لم آته " . فأمر المؤذّن فكف عن إقامة الصلاة حتى فرغت من طوافها . وحين عزله عبد الملك لهذا السبب لم يألم وقال : " ما أهون والله غضبه وعزله إياى علىّ عند رضاها عنى "[٢٨] .

كانت عائشة بلا شك تعلم تعلّق الناس بها ، وأن جمالها علّة هذا التعلّق . ولعل هذا ما جعلها تخرج على عُرف مجتمعها وتقاليده ، وقد عَنفها زوجها مصعب بن عُمير على سفور وجهها فلم تذعن له ، وجادلته قائلة : " إن الله

تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم . فما كنت لأستره . ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد "[٢٩].

وعائشة فى ردّها لا ترى تناقضا بين نزعتها إلى رضاء نفسها بإشاعة حسنها وبين المحافظة على الفضيلة ، ولا تجعل سفور وجهها سببا فى اتهامها بالمروق من حظيرة الدين .

وهذه الأخبار إن كانت صحيحة دلّت على افتتان الرجل بمحاسن المرأة ، ودلّت على حب المرأة إبداء حسنها وسعادتها برؤية آثاره . فإن كانت موضوعة دلت على إدراك واضعها هاتين الحقيقتين النفسيتين ، عند المرأة والرجل .

وليس الباحث فى حاجة إلى تأكيد خبر عائشة بنت طلحة ، ففيره فى الأدب العربى قديمه وحديثه كثير . وحديث الرجل عن المرأة فى الشعر العربى القديم قائم معظمه على تعداد مواطن الجمال وتفصيلها ، وبيان أثر هذا الجمال فى جذب الرجل ، حتى إنه ليُذهب لُب الحكيم ودين العابد :[٣٠] .

لو أنها عرضَت لأشمَط راهبٍ ... عبد الإلـه صَرورةٍ متعبّدِ
لرنا لبهجتها وحُسـن حديثها ... ولخالهُ رشداً وإن لم يرشُدِ

وابن حزم فقيه الأندلس ، يذكر في " طوق الحمامة " أسماء رجال فى عصره عُرفوا بالصلاح والورع ، دلّهتهم محاسن النساء وأورثتهم الضنى وأوردت بعضهم موارد الموت [٣١].

ولولا شيوع هذا الأمر على ألسنة الرجال واعتياد النساء سماعه ، ما كان حديث العشاق العذريين قديما ، ظاهرة فريدة فى باب الحب ، وما احتفى العصر الحديث بلغة الحب الرومانسى التى تخلو مما يستفز في الرجل غريزته ، وكانت مثل لغة العذريين تعبر عن نوع من الحب المطلق الشف ، الذى لا يستطيع صاحبه تعليله وتحديد الأقوى من أسبابه .

* فى قصيدة " المرأة والمرآة" يصف أبو ماضى انسياق "أسماء" مع فطرة المرأة ، وكيف أن غريزة المرأة فى حب التجمّل موجّهة أساسا إلى إرضاء الرجل وجذبه . يقول : [٣٢] .

فتاة هى الطاووس عُجْبا ، وذيلُها ... ولم يك ذيلا ، شَعرُها المتهَدلُ
سعت لاحتكار الحسن فيها بأسره ... وكم حاولت حسناءُ مالا تؤمِّلُ
وتجهل أن الحسن ليس بدائم ... وإن هو إلا زهرة سوف تذبلُ
وأن حكيم القوم يأنف أنْ يُرَى ... أسيرَ طلاء بعد حين سينصلُ
وكلُّ فتى يرضى بوجه منمَّق ... من الناعمات البيض فهو مغفَّلُ
إذا كان حُسن الوجه يُدعى فضيلة ... فإن جمال النفس أسمى و فضلُ
ولكنما أسماء بالغير تقتدى ... وكلُ الغوانى فعْل أسماء تفعلُ
فلو أَمنتْ سُخط الرجال وأيقنتْ ... بسخط الغوانى أوشكت ترجّلُ
قد اتخذت مرآتها مرشدا لها ... إذا عَنّ أمر أو تعرّض مُشكلُ

والأبيات على قلتها تطرح عددا من القضايا ، يُدلى الشاعر برأيه فى بعضها وفق حكمته المعهودة ، ونزعته إلى تبسيط أمور الحياة والتسامى بها . وقد مر بنا مثل قوله هذا فيما عرضناه من آراء الحكماء والفلاسفة ، ويمكننا مناقشة مضمون هذه الأبيات من خلال السؤالين التاليين :

(الأول) : هل يكفى جمال النفس الذى يفضّل - فى نظر الشاعر - جمال الجسد ، كلاً من المرأة والرجل ، فلا تلتفت هى إلى محاسنها الجسدية لتحقيق ذاتها فى عينىْ الرجل عن طريق هذه المحاسن ؟ أو يستغنى هو بما يدركه فى المرأة من نقاء النفس وكريم الخصال ، فلا يطلب وراء ذلك ما يترضّى حواسه ؟.

(الثانى) : هل لجأت (أسماء) - وهى رمز لكل النساء - إلى المرآة عن تقليد محض كما يذكر الشاعر ، فيكون بإمكاننا التخفيف من حدة هذا التقليد

بما نبشه فى المرأة منذ طفولتها من قيم ، وبما نكسبها من ثقافة تغير من نظرتها عند تقويم الأشياء ؟

ـ ذكرناه في مقدمة هذا المبحث يجيب عن هذين السؤالين ، فهو يرد على الأول ، بأن جمال النفس الذى هو مجموعة الفضائل لمكونة لشخصية المرأة ، ما كان منها مستمداً من أصول دينها وثقافتها ، وما كان منها مراعيا تقاليد مجتمعها وأعرافه ـ لا يكفى بمفرده لأن يكلف الرجل بالمرأة ، رغم إدراكه عظمة هذا الجانب وبالغ أهميته .[٣٣] ولو أن اكتفاء الرجل بهذه العناصر فى شخصية المرأة ، ليس مجاهدة ضد تيار الرغبة فى نفسه ، ما حث الدين الإسلامى الرجل بكثرة على مراعاة هذه الفضائل الروحية والنفسية وعلى رأسها سلامة العقيدة ، إذ هى أثبت وأنفع [٣٤] .

وفيما يتعلق بالسؤال الثانى ، فإن ما قدمناه من آراء علماء النفس وخلاصة تجارب الحكماء ونظر الفلاسفة ، يؤكد أن تأمّل المرأة حُسنها وتجمّلها غريزة فيها ، وإن تكن موجّهة إلى استمالة الرجل والتأثير عليه . وليس من سبيل إلى اقتلاع هذه الغريزة مهما تيقنت المرأة من إعجاب الرجل بها . وعلى هذا فإن قول الشاعر معلّلا تجمّل أسماء :

فلو أمنتْ سخط الرجال وأيقنتْ بسخط الغوانى أوشكتْ تترجّلُ

غير صحيح متى كان يعنى به أن الرجل فحسب علّة تجمّل المرأة . لكنه صحيح متى كان يعنى به أن الرجل حافز لغريزتها فى ذلك ، والغريزة تقوى بالحافز وتضعف بغيابه لكنها لا تموت . ولعل هذا ما قصده بقوله : " أوشكت تترجّل "، مفيدا به انصرافها عن (المبالغة) فى هذا الأمر ، لا تركه وإهماله .

وقد يكون صالحا ، أن نذكر فى هذا المقام رأى بعض الباحثين من ذوى النزعة الاشتراكية ، الذين هبّوا للذود عن المرأة ونصفتها وتصحيح وضعها

الاجتماعى. فهؤلاء يقرّون بوجود هذه النزعة عند المرأة ، لكنهم يحمّلون المجتمعات وأساليب التربية مسئولية بروز هذا الجانب فى شخصيتها والمبالغة فيه ؛ فقد تعودت أن تربى المرأة منذ طفولتها وتعدّها لأن تكون سلعة تجذب الرجل وتغريه . وقد وصل الأمر بهذه المجتمعات إلى حد الاتجار بوسائل شتى بجسد المرأة وتكوينها البيولوجى ، كما يتضح فى الإعلانات التجارية التى لا تستهدف من وراء ذلك سوى الربح . ويذكر هؤلاء أيضا ، رأى بعض علماء النفس فى تفسير هذه الظاهرة عند المرأة ، بأنها وسيلة لتعويض ما تحسّه من نقص اجتماعى ، ولعلاج ما تعانيه من عُقد النفس[٣٥] .

أيا ما كان الأمر فالنتيجة واحدة ، وهي أن أسماء كما يقول الشاعر :

قد اتخذتْ مرآتها مرشدا لها إذا عنّ أمر أو تعرّض مشكلُ

وليس الأمر أو المشكل الذى يُلجىء أسماء وغيرها من النساء إلى المرايا يستشرنها ، إلا ما قد تحّسه المرأة من انصراف الرجل عنها أو عدم التفاته إلى حُسنها ، فلعلها تلحظ على صفحة مرآتها علّة ذلك فتصلح من شأنها ما غفلت عنه . ويكثر الحديث فى هذا الأمر حتى يكاد الباحث يقرر أن الرجل لا يُقبل على المرأة إلا رغبة فى جمالها وحسن هيئتها ، وأنه لا يبقى بجانب المرأة بعد ذهاب فتنتها لأى سبب ، إلا من يعشقون جمال النفس وهم قليل من ذوى النفوس الرومانسية ، التى عرضنا بالتفصيل فى المبحث السابق خصائص نزوعها إلى المرأة. فالمحب منهم يتعلق بنوع من الحسن الخالد الذي أشار إليه أبو ماضى فى أبياته السابقة . وهى درجة عالية من درجات تعلّق الرجل بالمرأة ، تدخل فى إطار "المودة والرحمة" التى تكون عادة بين الزوجين ، يحب كل منهما الآخر ويفى له ، مهما حال لونه وتبّدلت هيئته .

* لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرْف العُودِ[٣٦]

لا يُعرَف طيب العود إلا بحرقه ، تُفشى النار سرّه فيُعرف أمره ويكون إقبال الناس عليه . والحسناء لا يبين حُسنها مقصورةً مقنّعةً . وهى تعلم أن لا قيمة لهذا الحسن الحبيس ما لم تمتلىء به العيون ، فتتحرك له الأفئدة وتلهج به الألسن .

وهى - لا شك - راغبة فى إفشائه وسماع مدحه واستجلاء آثاره ، وإن لم تُبد هذه الرغبة وكابدت فى كتمانها ، لا تهيم النفوس بالبدر يخفيه الغمام ، ولا تختلج للشمس تواريها السحب ، أو تنهض دونها الجبال والآكام . والمرأة - كما يُذكر - لا يسرها مثل التحدث عن حسنها وإكبار جمالها . وقد عُدّ هذا خير مدخل إليها .[٣٧]

فإذا كانت غريزة المرأة فى التجمل قوية ، فإن رغبتها فى ظهور جمالها ووقوفها على تأثيره أقوى . ولا يكفى الغانية وثوقها من جمالها ، وإنما الغناء كل الغناء فيما تراه مرسوما على وجوه الآخرين من أمارات الإعجاب بهذا الجمال . ومن أخبار عمر بن أبى ربيعة أن بعض النسوة كُنّ يتعرّضن لهُ ليَراهُنّ ويَشبب بهن ، فيذيع فى الناس خبر جمالهن ، حتى إن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان . كانت تحب أن يراها ليقول فيها شيئاً يُشيع حُسنها ، وهو يمتنع عن ذلك بسبب رعيد الحجّاج وتشديده عليه .[٣٨] .

ولقد تحدث جبران عن رغبة المرأة فى إشاعة حسنها فقال : " تشببوا بنرجس العيون ووردالخدود وشقيق الفم ، إن الجمال يتمجّد بالمتشببين . سبّحوا لغصن القد وليل الشّعر وعاج العنق ، إن الجمال يُسَرّ بالمسبحين . كرّسوا الجسد هيكلا للحسن وقدّسوا القلب مذبحا للحب ، إن الجمال يجازى المتعبّدين " [٣٩]

وفى ديوان على محمود طه بيتان من الشعر ، ترجمة لما جاء ببعض الآثار القديمة على لسان امرأة ، تقول :[٤٠]

يا للعذوبة يا حبيبى حين أهبطُ للنَّهَرْ

كى أستحم وأنت تُمعِن فى مفاتنىَ النظرْ

أى إن سعادة الحسناء لا تكتمل لها إلاحين يفشو حسنها ويُؤخَذ الناس به.

ولهذا يخاطب إبراهيم ناجى محبوبته قائلاً :[٤١]

يأيها الكوكب المحبوسُ فى فلكٍ	مبـــدّد مجده فيـــه مضيَّعهْ !
هيهات يخلد حُسن لا يؤلهـــهُ	شِعرٌ من النسق الأعلى ويرفعهُ

بينما راح العقاد يحذّر المرأة فى "عظة الجمال " من مغبّة هذه النزعة غير محمودة العواقب ، التى قد تعود عليها بالأذى . يقول :[٤٢]

والحُسن يعشقه الكريم وربما	أضرى لئيم النفس بالنزغاتِ
كالبـــدر يأتم السُّراة بنوره	ولقد يضىء مواقع الشبهاتِ
فاحذر ، فإن مع الجمال لغرةً	وأراك تأمن جانب الغفـلاتِ

ويستطرد ناصحا ومحذراً :

الحسنُ كنز فى يديك فوَقّه	لحظ الشحيح ونظرة ألمفتاتِ
هَلا علمت وأنت زهرُ مونقٌ	أن الزهـــور فرائس الحشراتِ

وإذا كان ناجى قد شكك محبوبته فى جدوى جمالها ، ما لم يُشِد هو بهذا الجمال ويطيّر ذكره ، لكيلا تحبسه عنه أو تدل به عليه . فإن العقاد راح يخوّف المرأة من المغالاة فى اتخاذ هذا الجمال وسيلة تنفذ بها فى حياة الرجال ، لأنه بمثل ما يرضى رغبتها ، يؤذيها ويضرّها .

*

ثانياً : بخلُ المرأة

مما جُبلت عليه النفس ، توقّع المجازاة فى الحب وُدّاً بود . وشعرنا القديم يتحدث عن كثرة إبداء الرجل عواطفه للمرأة واستعداده لركوب المخاطر ترضيةً لها . وفى مقابل ما نجد هنا وهناك من حديث عن سخاء الرجل فى مودته ،

نسمع كثيراً من شكوى هذا الرجل قلة عطاء المرأة ، إلى حد يجعله نهبا للشك فى صدق عواطفها نحوه .

تقرأ شعر (جميل) فنجده يشكو تقتير (بثينة) ويكثر من المقابلة بين جوده وشحها :[٤٣] .

ألم تعلمى يا أم ذى الودّع أننى ... أضاحك ذكراكم وأنتِ صلودُ

ويقول :[٤٤]

تسوّف دَينى وهى ذات يسارة ... فحتى متى دينى لديها يسوّفُ؟!

على ذاك ، إنى لا بخيلٌ عليهمُ ... ولا فاحشٌ فيما أطالبُ مُلحفُ

ولنسمعه يقول لها فى مرارة ويأس :[٤٥]

إنى إليكِ بما وعدتِ لناظرٌ ... نظر الفقير إلى الغنى المكثرِ

يعد الديون وليس يُنجز موعدا ... هذا الغريمُ لنا ، وليس بمُعسرِ

ما أنتِ والوعد الذى تعدينني ... إلاّ كبرق سحابة لم تُمطرِ

ويزيد مرارة نفسه ، أنها تمنّيه ، ثم إنها قادرة على العطاء . فيظل يشيمها فلا تتمخّض إلاّ عما يتمخض عنه الجهام من السحب .

وما الدّين الذى يطالب جميل حبيبته بردّه وهى تماطله ؟ ليس هذا الدّين سوى مجازاته حبا بحب . والثابت فى تاريخ علاقتهما ، أنها كانت تبادله إحساسه، وتتعلق به مثلما يتعلق بها . لكن جميل وكل محب ، يسعده أن يبوح له محبوبه بمثل ما يبوح به ، وأن يحاول لقاءه كما يتجشم هو الصعاب للوصول إليه . وكيف لا يتهم جميلُ بثينةَ بالبُخل وهو القائل فيها:[٤٦]

فلو أرسلتْ يوما بثينة تبتغى ... يمينى ولو عزّت علىّ يمينى

لأعطيتُها ما جاء يبغى رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سَلينى

بل لا يكتفى جميل بأن يعطيها يمينه دليلا على حبه ، وإنما يبلغ العاية

فيما يقدر عليه محب لإرضاء محبوبه :[٤٧] .

لعمر أبيكِ لا تجدين عهدى ... كعهدك فى المردّة والسماحِ
ولو أرسلتِ تستهدين نفسى ... أتاك بها رسولك فى سراحِ

وكما اشتكى جميل من مماطلة بثينة ، اشتكى كثيرون غيره ، فقال كثيرّ:[٤٨]

قضى كلُّ ذى دينٍ فوفّى غريمهُ ... وعزّة ممطول مُعنًّى غريمها

وقال ابن الدمينة لأميمة :[٤٩] .

تبعتك عاما ثم عامين بعده ... كما تبع المستضعفين جنيبُ
فأبلستُ إبلاس الدنىّ وباعدتْ ... لك النفس حاجاتٍ وهُن قَريبُ
رجاة نوالٍ من أميمة ، إنها ... إذا وعدتنا نائلا لكذوبُ

وكما أعلن جميل عن ترحيبه بمنح بثينة يمينه ونفسه ، أعلن غيره عن استعداده لاقتحام الأهوال وإيلام النفس نزولا على رغبة مَنْ يحب . يقول ابن الدمينة :[٥٠]

ولو قلتِ طأ فى النار أعلمُ أنه ... هُدًى منك ،أو مُدْنٍ لنا من وصالكِ
لقدّمتُ رجلى نحوها فوطئتها ... هُدًى منك لى أوغية من ضلالكِ

وإذا كان ابن الدمينة يطأ النار لإرضاء (أميمة) ، فإن غيره يعلن عن استعداده لأن يقضى ظمأ نزولا على رغبة محبوبته . يقول أبو الياسم الرَّسّى:[٥١]

قالت لطيف خيال زارنى ومضى ... صِفْ لى هواء ولا تُنقِص ولا تزدِ
فقال أبصرتُه لومات من ظمأٍ ... وقلتِ : قف عن ورود الماء . لم يردِ

وأرى أن جميلا لم يبلغ غاية العطاء فيما أعلنه من منح يمينه ونفسه فحسب ، وإنما فى قوله أيضاً :[٥٢]

وقد قلتُ فى حبي لكم وصبابتى محاسن شـــعر ذكرهن يطولُ
فإن لم يكـن قولـى رضاكِ فعلّمى هَبوب الصَّبا يا بثن كيف أقولُ

فلسانه لم يعد مقصوراً من قِبَله على إرضاء محبوبته ، وإنما جعله طوع إرادتها ، تملى عليه فى الحديث عنها ما تريد من عذب القول ، فالأداة له والإرادة لها . وحين يصل المحب إلى هذا الحد من العطاء ، يكون جديراً بأن يقول عن نفسه مثل قول جميل :[٥٣] .

وكل محب لم يزد فـــوق جهـده وقد زدتها فى الحب منى على الجهدِ

شُحّ المرأة فى إبداء عواطفها نحو الرجل ، حقيقة يُحسنُ الشعراء عرضها ، كما يتحدث عنها غيرهم . وعبارة مثل : "الرجل يضحك بقلبه أما المرأة فبفمها"[٥٤] تشير إلى ما بين الطرفين من فرق فى إبداء شعورهما ، مردّه إلى قدرة المرأة على ضبط إحساسها وإخفاء باطنها واحتراسها فيما يصدر عنها ، حتى عُدّت الكلمة الواحدة تصدر عنها لنفاستها ، كنزاً من اللغة ، فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يوجد بعضه فى الكثير من قول الرجل وبيانه . يقول بعضهم : "مهما تكلم الرجل فلا يقدر على شرح الحب ، ولكن تتفوّه المرأة بلفظ واحد فتذيب من الحب ما لا يسعه قلب الرجل . "[٥٥]

وليس غريباً ألاّ نجد شكوى جميل وكثيّر وابن الدمينة جارية على لسان امرىء القيس أو عمر بن أبى ربيعة وغيرهما من عشّاق الجسد ، الذين لم يحسّوا صبابة العشاق العذريين ، ولم يعانوا مثلهم من تقلّب أنفسهم بين الرجاء واليأس ، ولم يصبروا مثل صبرهم على حب غير مؤمّل .

وتزداد الشكوى من بخل المرأة عند الشعراء الرومانسيين الذين يلتقون مع العذريين فى كثير من خصائص تعلّقهم بالمرأة على نحو ما أسلفت القول .غير

أن شكوى العذرى جفوة محبوبته وشح نفسها ، تنم عن حزن تحوّل فى صدر صاحبه إلى سكينة مثل سكينة المؤمن حين يستسلم لقدره ، لا يقاومه ولا يخاضبه . بينما شكوى الرومانسى ، غالبا ما تنم عن اعتداد بنفسه وثورة لكبريائه ، كما تنم عن معاودة هذا الرومانسى أحلامه وآماله خلال سحب التشاؤم الكثيفة التى تحجب رؤيته . فشكوى العذري حزن ، وشكوى الرومانسى ثورة وانفعال . وكثيرا ما غضب هؤلاء الرومانسيون لمودتهم الخالصة التى لم تقابل بمثلها ، وصوّروا ما يبتعثه بخل المرأة في نفوسهم من هواجس الشك وعذاب الحيرة . هذا هو رامى يتودد إلى محبوبته مستقلا ما قدّمه إليها ، راغبا فى تقديم حياته برهانا آكد على حبه :(٥٦)

وما أُوليكِ من دمعي وسهدى ... وأُرسل فى غرامكِ من أنيني
أقدّمه وبى خجل عسانى ... أظن ضننتُ بالشيء الثمينِ
وهل عزّت على نفسي حياة ... أُقدّمها على قِصرِ السنينِ ؟!

ويشيع هذا في شعر رامى ، كما يشيع أيضا حديثه عن الحب الذي لا يُجازَى فيقتل صاحبه . يقول فى "القلب الضائع" :(٥٧)

ولقد أهنتُ مدامعى فسفحتها ... وأطلتُ فيك تغزّلى ونسيبى
وتخذتُ منكِ لخاطرى أنشودةً ... وقّعتهابتنهّدى ونحيبى
فإذا بسمعك صُمّ عن لحن الهوى ... وإذا بقلبك لا يُحس وجيبى
وإذا بقلبي بعد أن حمل الضنى ... لم تُبقِ منه مضاضة التجريبِ

وما أكثر ما وصف رامى تراتيل العاشقين فى محاريب الجمال أمام تماثيل المحبوبات ، دون أن يرتد إليهم ذلك بما يحيى الأمل فى نفوسهم ، فالمرأة دوما فى شعره ، تصم أذنيها عن لحن الهوى ، أو على الأصح تسمعه لكنها لا ترد جوابا . فهى صورة مطابقة لبثينة التى وصفها جميل بقوله :

* أضاحك ذكراكم وأنتِ صلودُ *

وديوان ناجى وغيره من الشعر الرومانسي يمتلىء بمثل كلام أحمد رامى، من تذكير المحب محبوبته بما يبديه لها من عواطفه وما يقدمه من أدلة حبه ، فى مقابل فتورها وشدة احتياطها للفظ تنطق به . يقول ناجى فى "الجمال الضنين :[٥٨]

قل للبخيل إذا ما عزّ مشرعهُ ... يا مانع الماء عني كيف تمنعهُ ؟!
أغرّ حُسنك أن الخلد جدولهُ ... وأنه من غريب السحر منبعهُ ؟!

أما عمر أبو ريشة فيطلب من محبوبته أن تترك نفسها على سجيتها ، لتبوح بما فى داخلها ، وألاّ تنتقى فى حديثها معه من الكلمات ما تخفى به حقيقة ما تحُس :[٥٩].

حدّثيني عما يضج بجنبيكِ وعما ... يثور من رغباتكْ
عن لياليك، عن شجونك، عما ... خبأته الدموع فى بسماتكْ
ما أنا منكِ ؟ ما تريدين منى؟ ... أنا بعض العثار من خطواتكْ
حدثيني ، قصّى جناح ظنونى ... حدثيني لا تنتقى كلماتكْ

وقد شكا مصطفى صادق الرافعى مثل أبى ريشة من شدّة احتراس محبوبته ، فقال : " وإنى لأحسب طبيعة الفرار التى رُكّبت فى المرأة قد خلقت فيكِ أنت على الضعف ، حتى لأراك دائما كالهاربة عنى وإن كنت إلى جانبى ، وحتى إن معانى كلماتك فى الحب لتفر من كلماتك ، وكأنك تحترسين بغريزة وحشية بالغة فى وحشيتها " [٦٠].

المرأة والدنيا

ولم يتوقف تعبير الرجل عما يشقيه على حد اتهام المرأة بإخلاف الوعد والمماطلة في أداء الدين ، أو وصفها بالاحتراس فى الكلمة تنطق بها له أو تكلفها ما يُخفى إحساسها من القول ، وإنما تطور إلى حد أن وصفها بالتقلّب وعدم الثبات على مودّة :[٦١]

فما تدوم على حال تكـون بهـا ... كما تـلوّن فى أثوابها الغـولُ
ولا تمسّك بالعهد الذى زعمـتْ ... إلا كما تمسك الماء الغرابيـلُ
فلا يغرّنْكَ ما منّت وما وعدتْ ... إن الأمانىّ والأحلام تضليـلُ
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيـلُ

فإحساس الرجل تجاه هذا الطبع فى المرأة ، قد وصل إلى حد اتهـامها بالمخادعـة والتلوّن . ومن ثَم راح الشعـراء ينظرون بعين واحدة إلى المرأة ولدنيا ويقرنون فى الحديث بينهما . والدنيا رمز التقلّب والتبدّل والغدر ، أو هى الوهم الزائف والسراب الخادع الذي يحسبه الظمآن مـاء ، فإذا أتاه لم يجده شـيئاً ، فازدادت غلّته وحسرته . ولا شك فى أن تجربة الرجل الطويلة مع الدنيا والمرأة ومعرفته ظاهر أحوالهما ، قد كانت سبباً فى أن يقرن بين الاثنتين ، يضعهما فى كفّتىْ ميزان ، فيسوّى بينهما تارة ، أو يُرجح فى صفة الغدر وسرعة التحول واحدة منهما على الأخرى . وصورة الدنيا فى القرآن الكريم مستوفاة الملامح دقيقة التفاصيل ، ونطالعها من زوايا عدّة وأوجه مختلفة ، كلها مخيف منفّر . فكان طبيعياً أن يكثر الشعراء قديماً وحديثاً من تشبيه المرأة بالدنيا رقة ظاهرها وقسوة باطنها ، كثرة ما تمنّى وتعد وقلة ما تنجز ، ثم أخيراً غدرها وسرعة تقلّبها . يقول أحمد رامى فى "هوى الغانيات :[٦٢]

وهـوى الغانيـاتِ مـثل هـوى الدنيا ، تلقاه تـارة وتخيبُ
منظر تظمأ النفوس إليهِ ... ومتاع يقل منه النصيبُ
وشقاء تلذ فيه الأمانـى ... وأمـان تحقيقها تعذيبُ

لكن ما هو أخطر من ذلك ، أن انعكست الأمور فى نظر الرجل ، تبدلا من أن كان يشبه المرأة بالدنيا فى تقلبها ، صار يشبه الدنيا بالمرأة ، وكأنه يقول لنا إن طبع التلوّن والإغواء وعدم الوفاء متأصل فى المرأة أكثر من تأصله فى الدنيا ، فصارت المرأة مضربا للمثل ومطلبا للبيان . ولعل هذا يتضح فى قول

أبى العلاء للفقيه الحنفى :[٦٣].

أمتَ من أسرةٍ مضَوا غيرَ مغرورين من عيشة بذات ضمادِ

فهو يشبه الدنيا بـ (ذات الضماد) ، وهى :"المرأة الفاجرة التى لا تبقى على صاحب واحد ، فيكون لها أخدان تظاهرهم جميعا وتعاشرهم دون أن تخلص لواحد منهم ، لتصيب من خيرهم جميعاً" [٦٤]

لقد وصلت علاقة الرجل بالمرأة فى بعض حالاتها إلى حد فقدان الثقة فى وفائها ، بل الخوف منها . وقد مرّ بنا خبر قتل (القمان بن عاد) ابنته (صُحْر) وقولته لشهيرة لها:"وأنت أيضاً امرأة" . فصارت هذه القولة مثلا ينم عما تحصّل فى صدور بعض الرجال من شكوك فى إخلاص النساء جميعاً ، لا تستثنى منهّن واحدة .

أثر طباع المرأة

وليس أمام الرجل المحب الذى أوفى على الغاية فى حبه ، ولم يلق من المرأة كفاء ما قدّم إلا أمران : إما أن يقنع بالنزر ، يتقّاه منها ويبلّ به أوام روحه ، كما يتلقى الظامىء قطرات الماء تنضح بها مزادة لا يقدر على فضّ ختامها ، فهى لا تروى له غلّة لكنها تُبقى على حياته ، وإما أن تثور نفس هذا الرجل فيعلن رفضه هذه العلاقة غير المتوازنة التى تنال من كبريائه وهو يتزلّف إلى المرأة ويستجديها.

شعر العذريين وغيرهم من قدامى الشعراء أصحاب الحب العف ، يؤكد أنهم آثروا الأمر الأول بعد طول انتظار ومكابدة . وكأن نفوسهم جميعاً قد انعقدت على القاعدة الشهيرة : (ما لا يُدرَك كلّه لا يُترك كلّه) ، فصارت حالهم مثل حال رائدهم جميل بن معمر التى وصف فى قوله لبثينة :[٦٥]

وإنى ليرضينى قليل نوالكم وإن كنتُ لا أرضى لكم بقليلِ

لكنّ هذا الرجل الذى رُدّ إلى القليل فرضى به ، لم يتوقف تراجعه عند هذا الحد ، لأن قبول الأمر الواقع ، يمهّد لتنازلات أخرى تنتهى إلى استسلام

مطلق فإذا به بعد أن رضى بالقليل يأتيه من محبوبته ، يضطر إلى قبولها فى كل أحوالها : مانعة مانحة ، مقبلة عليه مدبرة عنه ، فنطالع كثيرا مثل قول الشاعر :[٦٦]

منكِ الصدودُ ومنى بالصدود رضا ... مَنْ ذا علىّ بهذا فى هواك قضى

والشاعر حين يتساءل عمّن قضى عليه بهذا الحكم الجائر ، يعلم أنه ما قضى عليه بذلك ، سوى ما فى المرأة من قوى جاذبة آسرة ، بيّنا أثرها فى تبديل طبيعته وتغيير نظرته .

ولا يتوقف الأمر كما قلنا ، فتطّرد التنازلات حتى تصل إلى قبول الرجل الذل فى حبه ، يعدّه تارة نوعا من رياضة النفس على الصعاب ، أو يعلله تارة أخرى تعليلا غريباً ، لا يُخفى به حرج موقفه فحسب ، وإنما يخلع به على نفسه شيئاً من الفخار :[٦٧]

وتذلّلت للحبيب وعزّ الصبّ فى سُنّة الهوى أن يسلاً
بأبى مَنْ أحلّ قتلىَ عمدا ... وهنيئا لسيّدى ما استحلاً
سوف أجزى الحبيب بالصدّ وداً ... مستجداً وبالقطيعة وصلا
وإذا ما استزاد تيهاً وعُجْبا ... زدت نفسى له خضوعا وذلا

ويجعل ابن حزم استكانة المحب لمحبوبه من أهم علامات الحب التى يُعرف بها [٦٨] ويقول :

" ولا يقولن قائل إن صبر المحب على ذلة المحبوب دناءة فى النفس ، فهذا خطأ.[٦٩] كما يذكر - عن تجربة - ما كان يحسّه من خضوع نفسه واستكانته لمحبوبته ، وأن ذله بين يديها أشد من ذله بين يدى الحاكم على ما له من هيبة وسلطان .[٧٠] ولولا أن حديثه طويل لأوردناه بنصّه لطرافته . يله فى ذلك أيضاً شعر طريف يمكن الرجوع إليه[٧١] .

وفى الشعر الحديث يكثر الشعراء من لمس هذا الوتر فى قيثارة الحب عن إحساس أو عن تقليد، حتى ليحسب القارىء أن على الرجل أن يقبل المرأة ويرضاها فى كل أحوالها : مدبرة مقبلة ، هاجرة واصلة ، وأن هذا القبول الذى

يصل إلى حد الرضوخ التام، مبدأ لا يناقش أو فريضة لاتخضع لجدل .أو بعبارة أخرى هو حق للمرأة لا ينبغى أن تحرم منه . يقول ولىّ الدين يكن تحت عنوان "الاستكانة" :[٧٢].

إن تكن قد خُلقْتَ للتّيه أهلا ... فأنا قد خلقتُ للصبر أهلا
امتثلت الهوي فلا أتشكّى ... فيه ظلما ولا أحاول عدلا
كن كما شئت خائناً أو وفيّا ... وإذا خنتَ كان ذلك فضلا
أنت أولى بالعز فى الحب منى ... وأنا فيه بالتضرّع أولى
كذب العاشق الذى ليس يفنى ... قلبه لوعة ولا هو يبلى

ولقد أقر الشعراء غير ولىّ الدين للمرأة بهذا الحق ، فنجد مصطفى صادق الرافعى ، أحد المجّربين ، يُحصى فى حُبّه ما له وما عليه ، فإذا كل ما أحصاه واجبات عليه وحده أن يؤدّيها :[٧٣] .

لك أن تشا وعلىّ ألاّ أجزعا ... ولى الهوى وعليك أن تتمنّعا
م الحب إلا أن تكون مملّكا ... ونذل يا ملك القلوب ونخضعا

ويكثر من تكرار ذلك فنقرأ له أيضاً : [٧٤]

له منى التذلل والرضاء ... ولى منه التدلل والإباءُ

ومافتىء هذا المحب يعلن لمحبوبته عن سعادته بكل ما تأتى به : [٧٥]

فاعجب وته ، ماذا عليك إذا أذل الناس عُجبكْ
إن تبتعد أو تقترب ... فأنا على الحالين صَبكْ

ثم نراه يعلسف جفاء محبوبته ويفسّره تفسيراً يرضى نفسه ويخفف من سورتها فيقول: "وإنى لأعلم أن كل شىء حبيب ممن نحبه حتى البغض إذا كان يدل على حبه ولو دلالة خفية .. بيد أن صاحبى يجفو جفاء شديدا، فلعلها أنفة غلبت بها النفس على القلب فحولّت الحب إلى جفاء والجفاء إلى غيظ والغيظ إلى مقت"[٧٦]وقد أراد الدكتور زكى مبارك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تأسيس مذهب "تربوى" فى لغة الحب ،فكان ضمن ما أسس عليه مذهبه قوله:"يا أعلام الحسن :إن كنتم فطرتم على العزة وجُبلتم على النخوة،فهبونا بعض القرب منكم والأنس بكم،

ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة . وخضوع وعبودية . وقد تذرناكم لعزكم فارحمونا لذلنا "[٧٧]

وكثير من شعر الدكتور زكى مبارك يحمل هذا المضمون ، الذى نجده أيضاً فى الشعر الرومانسى بكثرة . وكثرته فى الشعر الرومانسى ظاهرة نوليها اهتمامنا وذلك لغلبة الأنفة على طبع الرومانسى وشدة اعتداده بذاته . وهذا إن دل على شىء فعلى أن عاطفة الحب تغلب الطباع جميعا وتسوّى بينها ، فلا يكاد يتميز شيء منها ، وكأنها الغَمْرُ يسوّى بين الأعماق . وقد وصف على محمود طه على لسان (تايبس) كيف يذل الطبع الشرس لسلطان المرأة ، فقال:[٧٨] .

هو الحسنُ فتاننا العبقرى ... هو الحب سلطاننا القاهرُ
قلوب مدلَّهة بالجمال ... ترى فيه معبودها الملهَما
هو الرجل القلبُ لا غيره ... فأودعنه القبس المضرِما
أَمِن به الشرس المستخف ... وأيقظن فيه الفتى المغرَما

وعبارة (هو الرجل القلبُ لا غيره) تنطق على قصرها بالكثير . ولا تقل عبارة (وأيقظن فيه الفتى المغرما) عنها أهمية من حيث دلالتها . يكفى أن نفهم من الأولى أن الرجل أمام المرأة قلب لا إرادة معه ، وأن نتصور من الثانية فى ضوء ما عرضناه سابقا ، ما يمكن أن يحدث من تضحيات وبذل حين يستيقظ (الفتى المغرم) فى شخص كل منا .

وشعر رامى ، الفصيح منه والعامّى ، يمثل أكبر نسبة من هذه المعانى . ولعل انشغاله بالتأليف الغنائى ، وحرصه على إثارة عواطف الناس بالتوّول على ما يرتضيه الذوق العام فى لغة الحب ـ لعل ذلك وراء شيوع هذه الظاهرة فى شعره ، التي صوّرت المحّب شخصا مسلوب الإرادة تماما ، لا يغاضب ولا يعاتب ، حتى إنه ليتنازل عن أبسط حقوقه إرضاءً للمرأة ، فيكفيها مثلا عبء

الاعتذار إذا حاولته:[٧٩]

تعالَ لا تعتــذر لذنبٍ بقدر حبى غفرتُ ذنْبكْ

وهو لم يغفر وإنما أغضى ، إذ ليس بيد الأسير أن يحاسب آسره ، ولا الضعيف أن يقيم محاكمة للقوى الغالب . كما نراه فى موضع آخر يعلن عن رضاه المطلق عنها ، واستحسانه كل ما تأتيه :[٨٠]

هويتكِ لم أطلب مُساجلة الهوى فأسمى الهوى ما كان غير سجالِ
صِلينى وإلاّ فاهجرينى ، فإننى أحبــك فــي هجر وطيب وصالِ
جعلتك همى فى الحياة وشاغلى وياشــدّ ما ألقى ولست أبالى

وللأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى وصف استكانة الرجل القوى للمرأة الفاتنة كلام كثير، نطالعه فيما ذكرنا من مؤلفاته التى شرح فيها تجربته مع المرأة . وقد تجلّت فى هذه المؤلفات قدرته البيانية المعهودة . يقول :

" فى المرأة الجميلة أشياء كثيرة تقتل الرجل قتلا ، وتخلجه عن كل ما فى دنياه كما تخلجه المنيّة عن الدنيا ، وليس فيها شىء واحد ينقذه منها إذا أحبّها . بل تأتيه الفتنة من كل ما يُعلن وما يضمر ، ومن كل ما يرى وما يسمع ، ومن كل ما يريد ومالا يريد ، وتأتيه كالريح ؛ لوجهد جهده ما أمسك من مجراها ولا أرسل" .[٨١]

ويعرض ضعف المحب وقلة حيلته فى موضع آخر فيقول :

" ولم يخلق الله فيما أعرف غير الحب فكرا ، يتمكن من الإنسان ويضرب الضربات الثقيلة ، فيستطير فى قلبه استطارة الصدع الشادخ فى لوح الزجاج : يشقّه على مدّ ما تتصل إليه حركته ويثلمه على غير قاعدة من هنا وههنا ويدعه فلولا تتشظى "[٨٢] .

فالحب قوة غالبة والمحبوب متسلّط على نفس محبه تسلط القدر ،"ولو أنك سألت عاشقا أن يصادم من يحب ويتسع لهجرها ونبذها ويتجافى عن

هواها، لكانت عاقبة ذلك فى نفسه ويقينه ما يعلم من العاقبة فى مصدمة الأرض لكوكب من الكواكب ، إذ يتحطم ولا يغنى شيئاً فى تعطيل قوة الجذب المنصبة من قمره الجميل على كرة قلبه الصعيفة "[٨٣] .

ويذكر الكاتب العاشق أنه كان يملك عقلين : عقلا قويا جبارا كالعاصفة ، يدبّر به أمور حياته ولا ينقطع له من الحيلة مدد ، وعقلا ضعيفا تمرضه ابتسامة المرأة فيكسر نفسه كسرا ويرضّها رضّ الهشيم . لكنه صار فى حبه الذى بتلى به يحس بأن لا عقل له ، "فقد كان الهوى يركض به ركض المجنون الذى يجرى ، وكأنه يجرى وراء عقله الذاهب على غير طريق ولا جادّة ولا علم . فلا عقله يقف له ولا هو يدرك عقله " [٨٤] .

وهكذا نجد الرجل الذى كان يشد على خصمه بمفرده شد القبيل ، ضعيفاً أمام المرأة لا حول له معها ولا طوْل :[٨٥] .

أسرتِ أخانا بالخداع وإنه يُعَدّ إذا اشتد الوغى بقبيلِ

ولا يقصد الشاعر بالخداع ، سوى ما أشار إليه الرافعى من أسباب لفتنة ، تسلطها المرأة على الرجل فتخلجه عن كل ما في دنياه ... الخ . ويتشكك الشاعر فى قدرة هذا الشجاع الذى نالت منه المرأة ، على معاودة ما كان يأتيه من ضروب الشجاعة:

وكيف يجر الجيشَ يطلب غارةً أسيرٌ لمجرور الذيول كحيلِ ؟!

وأرى ألا نحمل الاستفهام فى البيت محمل النفى والاستبعاد ، وإنما نحمله محمل الدهشة والعجب ، يبديهما الشاعر فى أمر الرجل ، يرق لمرأة فيبلغ أدنى درجات الضعف ، ويشتد لأقرانه ويقسو فيبلغ أقصى درجات الشدة . وهذا ما عبّر عنه إيليا أبو ماضى فقال :[٨٦].

يحاربُ الرجلُ الدنيا فيخضعها ويفزع الدهر مذعوراً إذا غَضبا

يرنو ، فتضطرب الآساد خائفةً فإن دنت ذات حُسن ، ظل مضطربا
فإن تشأ أودعت أحشاءه بَرَداً وإن تشـــأ أودعت أحـشاءه لهبا

ومن طريف ما جاء فى ذلك قول أم زرْع تصف زوجها : "المسّ مسّ أرنب والريح ريح زَرْنب ، أغلبه والناسَ يغلب "[٨٧] وكذلك قول ابن حزم :

" ومن عجب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسرا إلى طباع من يحبه . وربما يكون المرء شرس الخلق صعب الشكيمة جموح القيادة ماضى العزيمة حميّ الأنف أبىّ الخسف ، فما هو إلا أن يتنسّم نسيم الحب ويتوسط غَمْره ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا والصعوبة سهلة ، والمضاء كلالة والحمّية استسلاما "[٨٨] .

* ما ذكرناه من خضوع المحب واستكانته ، هو منطق العشاق وشرعتهم لو أن الحب يسير وفق منطق . لكننا نسمع أحياناً وعلى غير توقّع ، أصواتا تنم عن استياء هؤلاء ، تبدأ عادة بشكوى ما يبدون من شح المحبوب وصده ، ثم مقارنة المحب حاله بحال نظرائه الذين حَسُنت حظوظهم . يقول ابن الدمينة :[٨٩]

يُثاب ذوو الأهواء غيري ولا أرى أميمـــة مما قد لَقِيتُ تثيبُ

وبنعى جميل حظه :[٩٠]

أرى كل معشوقيْن غيرى وغيرها يلـذّان فى الدنيا ويغتبطانِ

وقد تتطور هذه الشكوى على لسان المحب إلى ندمه على ما منح وفرّط، ثم إلى تمنّيه استرداد زمام نفسه ، لإصلاح ما أفسدت هذه النفس بعجزها :[٩١]

لو كان لى صبرها أو عندها جزعى لكنت أملك ما آتى وما أدعُ

وجميل صاحب هذه الأمنية يقر بانعدام حيلته فى تصريف هواه ، وبيأسه

من أن تنصلح حاله ، فلن يكون له فى يوم من الأيام (صبرها) ، أى مثل قدرة (بثينة) على التكتم والتحفّظ ، ولن تُمنَى هى بـ (جزعه) ، أى خفة فؤاده وسرعته فى إبداء مكنونه .

ويُبدى الرافعى مثل أمنية جميل ، فيقول : (٩٢)

ألا ليت لى قلبين : قلبٌ بحبه ... مريضٌ ، وقلبٌ بعد ذاك طبيبى
ويا ليت لى نفسين :من رئم روضةٍ ... ألوف، ومن ذى لبدتين غضوبِ
وكيف بقلب واحد أحمل الهوى ... عجيباً على طبعى وغير عجيبِ

فكلاهما راغب فى إصلاح حاله وامتلاك أمره : الأول ، عن طريق مبادلة الطباع بينه وبين حبيبته ، والثانى عن طريق حيازته قلبين ، يهفو بواحد ويجفو بالآخر .

فإذا تطور سأم الرجل من مجافاة المرأة وتكتمها مشاعرها ، فإنه قد يصل إلى إحساس بامتهانها عواطفه ، يؤدى إلى إعلان غضبته وتمرّده عزمه ، على القطيعة . وللبيد بن ربيعةمن حبيبته (نوار) مثل هذه الغضبة التى يحاول الرجل من خلالها استرداد زمام المبادرة ، كما أن مظاهرها كثيرة جدا فى الشعر العربى الرومانسى ، لما ذكرناه من انطواء الرومانسى على شىء من حدة المزاج واعتداد بالنفس ، يعلن عنه ناجى كثيراً فى شعره .وحُقّ لناجى وقد وصف محبوبته بـ "التمثال الصموت" فى قوله :(٩٣)

كنتَ ترثى لى وتدرى ألمى ... لورثى للدمع تمثالُ صموتْ

حُقّ لنفسه أن تضجرمن وقوفها الطويل أمام هذا التمثال الصموت ، تهتف به فلا يحس بها . وقصيدة "كبرياء" تصف سورة هذه النفس العشقة ، تهب كل ما عندها فلا تلقى غير الإعراض ، كما تصور "الأطلال" هذه النفس أيضاً ، وإن كانت الثورة تتخذ فى هذه القصيدة شكلا آخر تتجه فيه إلى داخل

هذه النفس لتصبح مزيجا من الغضب والندم والحزن وتقريع الذات [٩٤] . وهذا التعبير عن معاودة النفس كبرياءها وتماسكها ، كثير فى شعر ناجى ورامى ، قليل عند غيرهما من الرومانسيين . يقول رامى فى "ثورة نفس" :[٩٥]

مَنْ أنتِ ، حتى تستبيحى عزتى ... فأهين فيكِ كرامتى ودموعى ؟!
وأبيتُ حرّان الجوانحِ صاديا ... أصْلَى بنار الوجد بين ضلوعى

وراح يتوعد فى القصيدة محبوبته ، إذا استمرت على حالها ولم تجازه مثلا بمثل . وهو نفسه القائل :[٩٦].

هويتُك لم أطلب مساجلة الهوى ... فأسمى الهوى ما كان غير سجالِ
صِلينى وإلا فاهجرينى ، فإننى ... أحبّك فى هجر وطيب وصالِ

أما عمر أبو ريشة ، فيصف فى "عاصفة" حالة الرجل تُحنقه المرأة بمماطلتها ، حتى إنه ليتهم نفسه فى سورة غضبه بالجهل والحمق :[٩٧]

يا لجهلى ! لكم لمحت بعينيك حياة علوية الألوانِ
واتخذت العهود منك جناحىّ لأفق عذب الرؤى ريّانِ
فتخيّلتُ أننى أصنع الدهـ ... ـر وأجنى من قفره ريْحانى
فإذا بى صِفر اليدين مُكِبّ ... فوق أشلاء حُلمى الفتّانِ

ويتحدث عن (شمشون ودليلة) فى موضع آخر ، فيرفض أن يكون رجلا مثل شمشون تخدعه المرأة وتنال منه ، كما يصف خيبة أمله فى محبوبته التى كان يتخيلها جوهرة فوق قمة جبل شاهق ، يُستهان بالصعاب من أجل بلوغها . لكنه حين بلغها لم يلف أمامه سوى كرة زجاجية جوفاء هشة :[٩٨]

حكايةٌ مزوّرهْ ... من قال : هذى جوهرهْ
كانت على البعد ينابيع السنا المفجّرهْ
سعيتُ فى طِلابها على الشعاب المقفرهْ
على ملاعب النسور والضوارى المخدرهْ

وخلف أقدامي نثيرُ من جراحي الخيّرهْ
واخيبتي ! لم ألف إلا كرة مبلورهْ

ويشتد الشعراء المعاصرون فى ثورتهم على المرأة ، فيرفض بعضهم أن تكون المرأة - كما يذكر العذريون والرومانسيون - قدرا لا مهرب منه إلا بالموت . وهكذا تتعرض مكانة المرأة لنوع من الجدل ، يتهدد ما تنعم به عند بعض الرجال من قبول مطلق أشبه ما يكون بقبول الإنسان قدره واستسلامه له . يقول فاروق جويدة : [٩٩] .

لا . لم تعودى ذلك العصفور يسكن عش أيامى ويتركنى وحيدا لظلال
لا . لم تعودى قطرة الماء الخجولة ، تستبيح الزهرة البيضاء ،
ثم تعود تُلقى نفسها فوق الرمال .
لا . لم تعودى ذلك الحلم المعربد بين أعماقى ،
يُمنّينى ويتركنى وحيداً للسؤالْ .
لا لم تعودى قطعة منى ، إذا ما جئت أشطرها يمزقنى المُحالْ
فالآن أنت أمام عينى لوحة سرداء ، مات اللون فيها والخيالْ
فأنا دفنتك من سنين ، بين أعماقى ، وكفّنت الجمالْ

والرجل الغاضب يشرع فى وجه المرأة أسلحته . ثم هو يعلم أن المرأة تدل عليه بحسنها فرأيناه تارة يغض من جمال شكلها ويعلي عليه فضائل النفس وجمال الروح ، على نحو ما ذهب أبو ماضى فى "العاشق المخدوع" وما ذكرنا من موقف الشابى وآراء الحكماء[١٠٠] . كما رأيناه تارة أخرى يلجأ إلى تشكيكها فى جدوى هذا الجمال ، سلاحها النافذ الذى تصول على الرجل به وتدل . فيذكّرها دوما بأن حُسنها عَرَض زائل سرعان ما يمّحى مخلّفا لها الحسرة ، لأنها لم تُقِم عرشها إلاّ عليه .وكأن الرجل بذلك يستحث المرأة على كثرة البذل له ولديها ماتَمُنّ به ، قبل أن تصبح يدها صفرا . يقول الزهاوى لمحبوبته بعد أن

عدد أمارات حُسنها :[١١]

يا سرحة الماء أنت اليوم وافـــرةُ
وأنت ناعمة خضراء ناضـــــرةُ
لا تأمنى الدهر فالأيام غـــادرةُ
يا سرحة الماء إن جاء الخريف غدا
فإنمـــا هـــذه الأوراق تنتـــثرُ

ويتطور هذا المعنى عند عمر أبو ريشة ، فيتصور نفسه واقفا أمام محبوبته يعزّيها فى جمالها الراحل ، الذى كانت تتيه به ، وتذود بكثرة دلّها وعُجبْها عنه:[١٢]

أمّا الصبا فلقد مـرّت لياليـهِ ... فابكيه يا عفةَ الجلباب ، فابكيهِ
ملكتِ قلبك عن روض الهوى زمنا ... واليوم روض الهوى غِيضت سواقيهِ
بالأمس إن جئتُ أبدى ما أكابـدهُ ... لويتِ جـيدك عـــما جئـتُ أبديهِ
وما رثيتِ لدمـع كنـــتُ أذرفـهُ ... ولا عطفـتِ عـلى جـرح أعانيـهِ
واليومَ جئـتكِ لا صبّـا ولا كلفـاً ... بل للجـمال الـذى يـذوى أعزيهِ

وحـديثـه ليس من قـبـيل العـزاء فى شىء ، بل هو مـزاج من العـتـاب والشـمـاتة ، يكشف عن مَوْجِدةٍ دفينة مثل موجدة الجائع ، يُحال بينه وبين البستان حتى تجف ثماره وتصّوح أغصانه .وبمثل حديث أبى ريشة راح العقاد فى "ودّع جمالك" ، يلوم حبيبته على أن ضنت بجمالها حتى دوى هذا الجمال ، فلم تحزن الدنيا ولم ينقص من بهجتها شىء :[١٣]

ربّ الجمال ، ألا بكيتِ على الصّبا ... فالدمع ليس على الصّبا بكثيرِ
ودّعتَ حُسنك يا حبيبُ ، ولم يقف ... هـــذا الفـضاء مودّعا للنـورِ
وجه السماوات الوضـاء كعـــهده ... وأرى الزيـــادة فـى وجوه الحـورِ

وفى نبرة شامتٍ راح يقرّعها ويسائلها عن هذا الحُسن الذى ادّخرته وضنّت به : ما باله راح ولم يبق لها منه شيء ، رغم تحفظها وشدة تقتيرها :

ما بال حُسنكَ ، قد بخلتَ فلم يدُم؟! والشيء لا يفنىَ على التقتيرِ!
ذهبت بشاشته ولم تُخلِف سوى تعبيس شاكٍ واكتئاب أسيرِ
فاسكب عليه مدامعَ استوعبتها من جفن كل متيّم ، مهجيرِ
واذكر جمالك ، لا بقلب مُودِّع يرجو اللقاء ولا بقلب غريرِ
ودّعه توديع العجوز وحيدَها والشيخِ فلذةَ قلبه المفطورِ .
لا غائبا يُرجَى ، ولا متبدّلا يُنسَى ، ولا يُسلَى له بنظيرِ

ثم نراه فى موضع آخر يعيد على مسامعنا حديثه السابق ، ويحث الحسان على عدم الزهو بجمالهن ، أو حَجْبه فإنه رائح لا محالة ولا قيمة له إلاّ بقدر ما تسعد النفوس به [١٠٤].

وقد لا يكتفى الرجل بحديث الشيخوخة ومعاولها الهادمة يخوّف به المرأة لتجود وتسمح ، فنراه يذكّرها أيضاً بالموت الذي يبغت الناس ، فيختزم كل شيء من قوة وجمال قبل أن ينعموا به . ولعل المتنبى أقدم مَن استحث المرأة على العطاء بمثل هذا الحديث ، حيث قال :[١٠٥]

زوّدينا من حُسن وجهك مادا م فحُسن الوجوه حال تحولُ
وصليـنا نصلكِ فى هذه الدنيا فإن المقام فيها قليلُ

فالمتنبى يذكّر المرأة بأمور قد تكون عازبة عنها ، يوقظ بها فى نفسها المخاوف ، لعلها تعيد تقويم موقفها والنظر فى مسلكها .ويتردد صوت المتنبى كثيرا فى الشعر العربى الحديث فيقول النشار لمحبوبته :[١٠٦]

ولا يغُرنّكِ حُسنٌ يجرى على ميقاتِ
فسوف يصبح فى التُرْ بِ أعظُما نخراتِ

ثم نراه يقارن فى القصيدة نفسها بين جمالها وجمال البدر ، فيرجّح كفة محبوبته لما يترقرق في جمالها من ماء الحياة . لكن الشاعر سرعان ما يستدرك فيجعل هذه الميزة عيباً ، إذ لولا هذه الحياة فى جمالها ما أسرعت إليه عوامل التحلل والفناء . فجمالها أعظم لكنه زائل ، وجمال البدر أقل لكنه دائم ، وهكذا يشيع الشاعر فى نفس محبوبته بعد السعادة حزنا ويبتعث فيها تأملا ، قد يدفعانها إلى تواضع فى معاملته ، ومزيد من الدنوّ إليه :

لكنّ حسنكَ فانٍ ... يُعدُّ بالسنوات
إن عشتَ تسعين عاما ... فارقب نَعِيَّ النُّعاةِ

والقصيدة برمّتها استنهاض من الشاعر لمحبوبته ، من أجل مساجلته الهوى قبل أن تخمد الشيخوخة أو الموت صوت الحب فى أعماقها .

ويكثر الدكتور زكى مبارك من طرق هذا الموضوع شعراً ونثراً ، فنراه يقول للنساء مستعطفاً ومخوّفا :

" يا أرباب الجمال : ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما ويأكله التراب أكلا لما ؟ أما والله إن أرواحنا لفى حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف .. ، فلم تحرمونا فى حبنا لكم وإشفاقنا عليكم مما تكرمون به الجماد ليلا ونهارا ، على أنه لا يعرف ما حف به من حُسن وأحدق به من جمال ؟[١٠٧] ثم يعقّب متوعّدا : " فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة والجفاء والإعراض فانا نبشركم بأن الحسن حال تحول ودولة تدول ".[١٠٨]

وإذا كان الدكتور زكى مبارك قد نعى على الحسان حرمانه من الجمال الذى تجود به على الجمادات التى لا تحس به ولا تعرف قدره ، واستعطف تارة وخوّف أخرى ، فإن الشعراء الرومانسيين قد أكثروا من ترديد حديثه هذا ،

وزادوا عليه من القول ما فيه حث لرغبة المرأة فى إشاعة حسنها وإطراء جمالها. يقول ناجى فى " الجمال الضنين " [١٠٩]

قل للبخيل إذا ما عزّ مشرعهُ ... يا مانع الماء عنى كيف تمنعهُ ؟!
أغرّ حُسنك أن الخلد جدولـه ... وأنه من غريب السحر منبعهُ ؟!
يأيها الكوكب المحبوس فى فلك ... مبدّد مجده فيه مضيّعهُ !
هيهَات يخلد حُسن لا يؤلهـهُ ... شعر من النسق الأعلى ويرفعهُ !

ولعل القارىء يحس فى البيتين الأخيرين شيئاً من المساومة أو المقايضة : هى تجود عليه بحسنها وهو يشيع هذا الحسن ويُخلّده . ولعل هذا أيضاً يذكّرنا بما سبق أن أوردناه من خبر عائشة بنت طلحة مع زوجها مصعب ، وخبر بعض نساء العرب مع عمر بن أبى ربيعة ، من حيث رغبتهن جميعا فى إبداء حسنهن ، وفيما يُطرى هذا الحسن من قول يشبع رغبة فى نفوسهن .[١١٠]

والشعراء يلمسون بكثرة هذا الوتر الهام فى طبع المرأة ، فيمنّون عليها بتراتيلهم التى خلّدت جمالها وارتقت بها عرشا من المجد ، ما كانت لتبلغه بدونهم مهما أوتيت من هذا الجمال .يذكّر محمود حسن إسماعيل محبوبته بشعره الذى سما بها على معارج عالية ، وكانت من قبلُ كسائر الناس لا تتماز عنهم بشىء:[١١١]

نسختُ حسنك روحا ساميا ألقا ... وكنتِ كالناس من ماءٍ ومن طينِ !
وظلتُ أبلى شبابى فى صيانتهِ ... وأنتِ بالهجر والتعذيب تُلينى
خلّدته بأغاريدى ورُحت بهِ ... أزهى على كل فتّان ومفتونِ

ثم بلهجة حزينة أخذ يعاتبها على عدم استجابتها وقلة وفائها :

فما وفيتِ ولا مهد الغرام رثى ... لشاعر بالهوى العذرىّ مجنونِ !
لو كنتُ أهديته للنجم ، من قلقى ... لَحرّ من برجه العالى يواسينى
أو كنتُ أهديته للصخر ، من ظمئى ... لفجّر السلسل الرقراقَ يروينى

أو كنتُ أهديتُه للكون من شجنـى لحار دمـــعةَ مفجوعٍ تواسينى

وبمثل ما عاتب محمود حسن إسماعيل ، عاتب أحمد رامى محبوبته وذكّرها بأياديه عليها :[١١٢]

إنى كسوتُكِ من خيالى حُلـــةً وشّعتُ صفحتها بزهـــر ربيعى
ونشرتُ من روحى عليكِ غلالةً كالليـــل آذن فجـرُه بطلوعِ
.... الخ

والشاعر إذْ يقول لمحبوبته ذلك يعلم أنه يصيب محزاً فى طبعها ، ويصمى بسهامه غرورها واعتدادها المفرط بجمالها . فقد تخفف من غلوائها حين تدرك أن حاجتها إليه لا تقل عن حاجته إليها . ومن طريف ما يذكره عمر أبو ريشة فى ذلك ، قصة فتى مات فظلت إحدى الفتيات تبكيه وتقول :[١١٣]

غاب ولن يرجـع ، يا ليتـنى أعطيته بعض أمانى الحيـاةْ
يا ليتنى أطبقـــت أجفانـــه قبل الرّدى بالقبلة المشتـهاةْ
شعر بالوحـشة من بعـــدهِ ولم يكن لى فيه من أمنياتْ
كم مرّ بى والشوق يُـــزرى بهِ ولم يجد منى إليه التفـــاتْ
مالى إذا ما زارنـــــى طيفهُ أمسح من أجفانىَ الدامعاتْ
ليس ســـواه بـــين أترابـهِ كان يرى أنى أحلى فتـــاةْ

فهذه الفتاة لا تبكيه لأنها تحبه ، لكنْ لأنه الوحيد بين رفاقه ، الذي يمتدح جمالها ويسمعها فى ذلك ما يرضي حاجة فى نفسها ، وحين فقدت هذه اللهاة الوحيدة التى كانت تلهج بذكرها ، أحست بالوحشة ، أو أحست كأن شطرا من أنوثتها وجمالها قد توارى :[١١٤]

لولا اشتعال النار فيما جاورتْ ما كان يُعرف طيبُ عَرْفِ العودِ

فبموت هذا الفتى ، تنطفىء النار التى كانت قد انقدحت فى عودها ، فطيّرت أرجه ونبّهت إليه من كان غافلا عنه .

ذاتية الجمال وموضوعيّته

ومحاولة الرجل تشكيك المرأة في جدوى جمالها لتقليل اعتدادها به ، قد لا تتوقف عند هذا الحد ، وإنما قد تتطور لتأخذ شكلا أخطر من ذلك بالنسبة إلى المرأة ، وذلك حين يعلن الرجل لها أن ما يراه فيها من جمال مجرد شعور نابع من ذاته هو ، لا يرتبط بصفات جمالية موضوعة فيها ، أى إنه لا يقوم على عناصر جمالية موجودة فى شخصها ، بل على ما يخلعه هو عليها وما يتوهمه فيها ، وهذا القول الذى قد يوحى بشدة كلفه بالمرأة ، يسلبها ما تحب أن تمتدح به ، وما تحسبه أهم قواها فى جذب الرجل . ولا أريد تحت هذا العنوان عرض آراء النقاد والفلاسفة فى ماهية الجمال وتعريف الجميل ، فالموضوع جدلىّ لا ينتهى فيه قول . إذن (فموضوعية) جمال المرأة ، تعنى فى الدرجة الأولى قيامه على عناصر مادية محسوسة ، كأن تتوافر لها صفات شكلية يستحسنها الذوق السائد . والذين يقولون بموضوعية الجمال ، يرون أنه متى توفرت هذه الصفات فى الشىء موضوع الحكم (وهو هنا المرأة) ، أدى ذلك بالضرورة إلى استحسانه والانجذاب إليه والحكم له بأنه (جميل) . وشعرنا العربى فى غزله حافل بالعديد من الصفات الجسدية التى اتخذت معايير موضوعيه لجمال المرأة منذ زمن قديم . وقد تغيّر بعضها واستبدلت به صفات أخرى ، وبقى بعضها الآخر ضمن مقاييس هذا العصر .

أما (ذاتية الجمال) فكونه لا ينهض على شىء مما سبق وإنما تبعث على الإحساس به أشياء أخرى وراء المحسوس ، يشعر بها الرجل ولا يعللها ويحس قوة فعلها ولا يحددها . فإذا تعلق بامرأة لم يكن تعلّقه لأنها تفضل غيرها فيما وُهبت من أوصاف الشكل ، وإنما لأن (ذاته) هو أحست فيها جمالا من نوع آخر غير ما تُقِرّ به الحواس وترتضيه من إشراقة وجه واعتدال قد ورهافة خصر ، وغير هذا من أوصاف تعزى إلى الجسد . وكأن هذا الجمال الذى جذبه إليها

جمال نابع من ذاته لا يدّ لها فيه ، يخلعه عليها ، ولا يحس به سواه ، فلا يعدو كونه حالةً شعورية أو نفسية لذات العاشق تفرض عليه هذا التعلّق . وهذا الجمال الآسر الذى لا يستطيع العاشق تعليله وتعرّف أسبابه هو جوهر الحب العذرى وكل حب عف يُلغى فيه ما بين الأشكال من فوارق ، وتتساوى فيه أضدادها ونقائضها ، وربما تنعكس على صفحته عيوب المحبوب محاسن ومزايا ، ما دامت صورة امرأة التى يهيم بها صورة نفسية قائمة فى ذاته وليست مما يعاين ويلمس .

ولعل خير مثال يصور هذا النوع من الحب الذاتى ، قول المجنون لأهله وقد حاولوا تنفيره من ليلى بتشويه صورتها في عينيه :[١١٥]

يقول ليَ الواشون ليلى قصيرةٌ ... فليت ذراعا عُرض ليلى وطولُها
وأن بعينيها لعمرك شُهلةٌ ... فقلت كرام الطير شُهلٌ عيونُها
وجاحظة قوهاءُ . لا بأس إنها ... مُنى كبدى، بل كل نفسى وسُولُها
فدق صِلاب الصخر رأسك سرمدا ... فإنى إلى حين الممات خليلها

ومنه أيضا قول مصطفى صادق الرافعى فى محبوبته : " ما ظَهرتُ منها على عيب أعيبها به ، إلاّ رأيته عند نفسى شكلا جديداً من أشكال جمالها ، أو فنا بدعاً فيما حنيت عليه ضلوعى من هواها " .[١١٦] ومنه قول شوقى على لسان المجنون : [١١٧]

لم تزل ليلى بعينى طفلة ... لم تزد عن أمس إلاّ أصبعا

نافيا أن يكون تعلقه بها لما طرأ عليها من ملامح الأنوثة التى تشد الرجل وتستثير غريزته .

وقد أشار ابن حزم إلى هذا الجمال الذاتى الذى يدخل فى إطار الجمال المطلق، يشعر به المحب ولا يتعلق بشىء عند المحبوب فقال :"ولو كانت علة

الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألاّ يستحسن الأنقص من الصورة ، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيدا لقلبه عنه . ولو كان للموافقة فى الأخلاق، ما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء فى ذات النفس "[١١٨]

وقد اتخذ الأدباء كتّابا وشعراء (ذاتية الجمال) وسيلة يقاومون بها غرور المرأة ومباهاتها ، وراحوا يجردونها من أهم عددها . يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، وقد حمل حملة شديدة على محبوبته وعدّ جمالها ضربا من الخداع والتعمية :

"جمال المرأة المعشوقة إن هو إلاخرافة رجل من الناس . ويكونها خرافة عادت لا حقيقة لجمالها ، وكأن الحب إن هو إلا زيادة شعاع فى العين ، تنظر النفس به نظرا نافذا إلى موضع لذتها أو فكرها أو هواها . فإذا خط هذا الشعاع على من يضيء فى وجهه باحب ، نقل إليه النفس بيقينها وحمها جميعا فاختلطا على تلك الصورة ، فهما هناك شيء واحد : الوهم هو اليقين واليقين هو الوهم . فكل شيء من ذلك الجمال هو عقيدة ثابتة لا موضع فيها لجدل ولا مساغ لنقض ولا محل لرد..... أقول إن الحب زيادة شعاع فى العين ، كأنه كهربائية تتفاعل فى مركز البصر من الدماغ ، فينقدح منها ضوء على النفس متلون نافذ لا يثبت فيه حقيقيّ من المرأة على حقيقته ، ولا يظهر فيه شيء إلا مصبوغاً مغيراً ، ولا يردّه راد عن أن ينفذ إلى منتهاه حتى لينكشف له المستور وهو فى أستاره قد توارى . وما من حبيبة تجلس إلى محبها المفتون بها إلا هى تحت بصره كالعارية وإن لبست ما لبست ، لأنها بالحب جسم حي من أفكاره وهواجسه ونزعاته "[١١٩]

فعين المحب لا يبهرها ما تراه من ملامح المحبوب على حقيقته وإنما تنبهر به بعد أن تتناوله بالتغيير والتحوير ، أو بعد أن تجرد المرأة تماما من غلافها

الظاهر وتبدع لها كيانا آخر وصورة أخرى ، تستمد جمالها من أفكار الرجل وهواجسه ونزعاته . وبذلك لا يكون لمحاسن المرأة الشكلية عند أصحاب هذه النظرة الذاتية قيمة فى التأثير على الرجل وجذبه . وفى موضع آخر يقول :

ويا من سمعتم بالهوى إنما الهوى ... دم ودم ، هـذ كَ يصبو وذا يُصبيِ

متى انتلفا ذُلاً ودلاً تعاشـــقا ... وإلا فما فى رونق الحسن ما يسبى

يعلق شارح ديوانه على البيتين بقوله : " حدثنا الناظم ذات مرة ، قال : ليس العشق ما يظنونه من مليح يُستحسَن ، أو حَسَن يُستملح ،ولكنه دم يتحرك دلالا ودمُ يتحرك غراما . وهذا آخر رأيه فيه "(١٢٠)

وقد تناول الكاتب هذا المضمون فى عبارة موجزة دقيقة فقال : " إن جمالك أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنين وإلا فقد شركتك الحسان فيه ، لكنه بكلمة واحدة فنُّ قلبى أنا "(١٢١)

ما سوشية العشق

لكن تمرد الرجل وثورته وتهديده المرأة بُغية إحداث توازن في العطاء تستقيم به حياتهما ، لا يمثل فى الشعر العربى إلا نسبة ضئيلة جدا بالقياس إلى رضاه المطلق وقناعته بكل ما تأتى به ، فضلا عن كونه مجرد نفثات يطلقها صدره المزدحم المهموم فيحس شيئاً من الراحة . ويثبت واقع العاشق وما صوره الأدب به ، أن المرأة قادرة على أن تترضّى هذا الرجل المغضب بالبسمة تبديها ، وبالأمل الجديد تلوّح به له . ويتحدث هذا الواقع أيضاً عن عشاق كثيرين لا يقدرون على مغاضبة المرأة ولا يطيقون مجافاتها حتى تسترضيهم ، فإذا هم يعودون إليها أدراجهم . وفى لحظة صدق مع النفس وبُعد عن المكابرة ، قال ابن الدمينة لمحبوبته:(١٢٢)

هويتُ ولم تهوىْ ، وكنتِ ضعيفةً ... فهـذا بـلاء قد بُليتِ بذلكَ

وأذهَب غضبانا وأرجع راضيا وأُقسم ما أرضيتنى بين ذلكَ

وما وصف به العاشق نفسه فى البيت الثانى ، يمثل حال رفقائه الذين ابتلوا بمثل بلواه ، وكأنهم جميعا يستعذبون الألم ولا يتمنون البرء من العلّة . يقول ابن حزم :" والحب أعزّك الله داءعياء ، وفيه الدواء منه على قدر العاملة . ومقام مستلذ وعلة مشتهاة ، لا يود سليمها البرء ولا يتمنى عليلها الإفاقة "

ويشير تأكيدا لقوله إلى رجال من معاصريه استطابوا عذاب العشق وأدواءه وفضلوها على السلامة منه.[١٢٣] ولعل هذا بعض مظاهر الماسوشية ، التى تقوم على حب التضحية واستعذاب الألم . وكنت أعدّ شوقى مغاليا حين وقفت على قوله :[١٢٤]

قد تعيش النفوس فى الضيْم حتى لترى الضيم أنها لا تضامُ

ولعل ضيْم العشق هو الضيْم الوحيد الذي لا يتمنى المقهور الخلاص منه ، ويرى أنه الحق عين الحق والرحمة عين الرحمة . ويكرر الرافعى ما ذهب إليه شوقى فيقول:[١٢٥]

لم أكد أعرف الصبابة حتى برّحت بي همومُها تبريحا
وأَلِفت العناء حتى من الرا حة عندى أن لا أُرَى مستريحا

وقد تواترت أقوال الشعراء حديثا فى هذا المعنى ، فيقول علي محمود طه لـ (كيوبيد) ، متمنيا أن يُرجعه إلى أسر الحب وقيده ، بعد أن ضاقت نفسه بالحرية بعيداً عنه :[١٢٦]

وصحوتُ من خبل وبى مما أرى إطراق مكتئب وصمت حزينِ
فافتح لى الباب الذي أغلقتَهُ دونى ، وهات القيد غيرَ ضنينِ
وأَعِد إلى أسر الصبابة هاربا قد آب من سَفر الليالى الخُونِ
عاف الحياة على نواكَ طليقةً وأتاكَ ينشدها بعين سجينِ

ويصور ناجى ضيق النفس وخواءها متحررة من إسر الحب وقيوده :[١٢٧]

شكا أسره فى حبال الهوى ... وودّ على الله أن يُعتقا
فلما قضى الله فك الأسيرِ ... حنّ إلى أسـره مُطلَقا

فبعد أن منّ الله عليه بفك وثاقه ، يعاوده الحنين إلى أسر المحبوب وعبودية الحب . وهكذا نجد المحب يعانى فى وثاق حبه ، لكنه لا يتمنى - رغم ما يعلن من غضب - البعد عن أسره ، ولا يجد فى نفسه قدرة على ذلك :[١٢٨]

سئمتْ نفسى الحزينة دنيا ... كِ وملّت حياتها فى القتَامِ
وبرغمى أسعى إليكِ وقلبى ... يتلوّى فى قبضـة الآلامِ

وما تذكّرتُ قول طرفة :[١٢٩]

لعَمركَ إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكَالطِّوَلِ المرخَى وثِنياهُ باليدِ

وقابلت بينه وبين ما أطالع فى الشعر العربى من أحوال المحبين ، إلا وجدت تطابقا تاما بين تمكّن الموت من روح المرء وتمكّن الحب من قلبه ، فالعاشق قد يتمنى التحرر ، أو يظن أنه قادر عليه فيحاوله . فإذا استطاعه ، لا يلبث أن يشعر بآلام تفوق ما كان يعانيه مغلولا ، وأحس بروحه تلتمس له سبيل العودة ، وكأن محبوبه ما زال على البعد ممسكا زمامه ، قابضا على مقوده كقبض الموت زمام المرء .

وهذا هو الدكتور زكى مبارك يصرح لمحبوبته بأنه فكر فى قطيعتها ألف مرة فلم يقدر .[١٣٠] وأما ما نقرأ من قول كقوله :[١٣١]

إذا نَفَرتْ حسناءُ منـك فخلّها ... سترجع يوما وهْى من صَبْوةٍ تجرى

فلا يكاد يتطابق فى شىء مع سائر ما يصف من مسلكه مع المرأة ، كما لا يتطابق مع طبيعة الرجل العاشق التى يصفها الشعر العربي بعامة . وهذه

السياسة التى يرسمها ويضع بها أصول التعامل مع المرأة غريبة جدا عما نعالعه من سلوك الرجال المحبين ولا تصلح قاعدة يؤسسون عليها علاقتهم . أما القاعدة الحقة التى تلائم نفوسهم وتطابق ما نراه سائداً ، فهى ما تضمّن قول ابن الدمينة الذي ذكرناه من قبل ، ومضمونه عكس مضمون البيت السابق تماما ، ومعنى قوله :[١٣٢]

وأذهب غضبانا وأرجع راضيا وأُقسم ما أرضيتِنى بين ذلكَ

ولكثرة ما يمر بقارىء الشعر العربى ، وبخاصة الحديث منه ، من شواهد ضعف المحب واستلاب إرادته ، يكاد يشك فى صحة ما يقابله من إعلان العاشق قدرته على القطيعة ، وإن كان يستسيغه فى الفن نوعا من المجاز . وقد أصاب محمد سعيد العريان حين تحدث عن " رسائل الأحزان " ، فقال :

" إن قارئه يقرؤه فما يعرف ، أهو رسائل عاشق ألح عليه الحب ، أم زفرة مبغض يتلذّع بالبغض قلبه . والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب فى غمرة بلغت به من الغيظ والحنق ، أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض مَن كان يحبه بغضا يرد عليه كبرياءه وينتقم له . فما فعل إلا أن أعلن حبه فى أسلوب صارخ عنيف ، كما تحنو الأم على وليدها فى عنفوان الحب فتعضه ، وإنها لتريد أن تقبّله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب ، تضمه فى عنف وما بها إلا الترفق والحنان"[١٣٣]

وإن قارىء الشعر العربى ليميل دوما إلى تعليل ما يطالع من مظاهر المغاضبة بمثل تعليل محمد سعيد العريان غضْبة الرافعى ، وهو تأويل ينسجم أيضاً مع ملامح الصورة الغالبة فى الشعر العربى . فإذا قرأنا مثلا قول الشاعر:[١٣٤]

وأقسم لن أنثنى عن هواى وإن جار فى ظُلمِهِ ، أُقسمُ

فإننا نميل تحت تأثير ما طالعناه من خضوع العاشقين المطلق ، إلى تعليل هذا القسم والإصرار على توكيده ، بما يحسّه صاحبه فى نفسه من عجز عن احتمال قطيعة ، فضلا عن إتيانها ، لشدة كلفه ، وعلوق نفسه ، وليس بما يعمر صدره من أريحية وجلد .

لقد أدركت المرأة هذا السر فى طبيعة الرجل . وهو حقيقة واقعة فى شخصه ونفسه ، وليس بعض ما يزّينه الشعراء أو يستهويهم من خيالات .

ولهذا كان الرجل الذي يثور عليها ثورة حقة ويغاضبها فيصبر على مغاضبتها ، كان مثار دهشتها وتساؤلها . وكأنّ ما أتاه من صبر وما أبداه من قوة عزم ، ظاهرة غريبة ، واستثناء لافت . ولم يأت هذا الرجل بجُرم سوى مخالفته ما اعتادت عليه ، وسوى أنه ـ كما يقول إيليا أبو ماضى فى قصيدة " الرجل والمرأة " :[١٣٥]

* ليس يرضى بأن يغدو لها ذنَباً *

*

تعليل بخل المرأة :

وقد ظهر فى تعليل صدود المرأة وما تبديه من إعراض وجفوة أقوال كثيرة عن الرجال والنساء معا . من هذه الأقوال ما يتناول الظاهرة تناولا موضوعياً وينتهى إلى أنها حتمية اجتماعية . ومنها ما يفسّرها تفسيراً نفسيا أو ينحى بها منحى فلسفيا لا يخلو من طرافة .

* وخلاصة التفسير الاجتماعى ، أن المرأة وجدت نفسها منذ زمن قديم ، تأتمر بأمر الرجل وتطيعه : أبا وزوجا وابنا ، فألفت ذلك واعتادته حتى صار أمرا واجبا لا يقل عن واجباتها الأخرى . وكانت قوة الرجل وكذلك تحمّله منفرداً مسئولية الدفاع عنها وتدبير حاجاتها وحاجات الأسرة ، وما يتكبّد فى

سبيل ذلك من مشاق ، عاملا هاما قوّى فى نفس المرأة إحساسها بضرورة الطاعة والولاء . ثم نظر الرجل فوجد اقتتال الرجال أمثاله على المرأة واصطراعهم على الظفر بها ، ففرض عليها العزلة وبالغ فى إخفائها ، فاستجابت وأذعنت . وعُدت محافظة الرجل على نسائه مفخرة يَشرف بها ، كما صار خير النساء مَنْ لا تقع عليها أعين الرجال ، ولا تبرح - إلا عند الضرورة - خباءها . وهى بالإضافة إلى تخفّيها واستتارها ، محوطة بالحراسة ، لا تغفل عنها عين الرقيب . فأصبح الوصول إليها ضربا من المخاطرة غير مأمون العاقبة .

ولم تمنع مبالغة الرجل فى صون المرأة من وقوعها فى يد أعدائه سبيّة ، فيهوله هذا الأمر ويجلل رأسه عارا يطير ذكره بين الناس . لهذا نراه يئد البنت .

ويبالغ فى صون الزوجة والأم والأخت ، حتى صار حجاب المرأة تقليدا يراعى وعُرفا يُحترم ، أقرّه الرجال بفعل الغيرة على المرأة ، قبل أن يطلع الدين بضوابطه التى تنظم علاقتهم بها من كافة جوانبها ، مستهدفة كرامة الإنسان والارتقاء به .

إذن فالمرأة من قديم محوطة بسياج منيع من التقاليد والأعراف ثم من الدين . وعليها أن تقيس كل تصرفاتها وتضبط سلوكها بموازين لا تخطىء ، فالخطأ ليس محسوبا عليها وحدها فتصبر على تجرّع مرارته ، وإنما هناك شركاء تخشاهم وتحسب حسابهم . لهذا كان كبحها جماح نفسها ومقاومتها نزعاتها وأهواءها ، ضرورة يفرضها عليها كونها (أنثى) فى المقام الأول ، إذ لا يضار الرجل بمثل ما تضار به إذا تردّى فى بعض أهوائه . ومن ثم كان استحياء المرأة خصلة هامة متممة لكيانها الاجتماعى ، قبل أن تصبح قيمة خلقية وفضيلة روحية تتزين بها . ولا ينتظر من امرأة أن تحب فتفشى أسرارها بمثل ما يفض الرجل أسرار هواه وهى بشر لها ما للرجل من إحساس وميول ، وربما رقت عنه إحساسا ورهفت شعوراً . ولابد أنه يعتريها ما يعترى الرجل من نزوع النفس وتحرّك العاطفة ، لكنها تبدو أكثر منه قدرة على ستر مشاعرها وحجب أهوائها .

حتى أصبحت لكثرة ما تحاول من ذلك وتجاهد ، تمتاز على الرجل فيما أسماه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بغريزة (الاحتراس) ، التى يشكو الرجل وجودها بشدة فى طبع المرأة . يقول الرافعى لمحبوبته [١٣٦] :

" لا أثبت لك حبي إلا لتشبتى لى كبريائك ، ولا تقوم هذه الكبرياء ولا تثبت إلا بتعذيبى . والأساليب التى تخفين وراءها حبك بطبيعة الاحتراس الغريزية فيك ، هى بعينها التى تعذبنى بطبيعة الجرأة التى فىّ "[١٣٧]

يستمر فى بيان إحساسه بهربها منه وهى إلى جواره ، لشدة احتراسها فى إبداء عاطفتها :

" ولقد تركتنى وما أظفر منك بساعة رضا ، إلا رأيت فى يدى معجزة وكأنى أمسكت من الزمن ساعة كانت هاربة فى الأبدية "[١٣٨]

احتراس المرأة ليس كما يذكر الأستاذ الرافعى غريزة تُولد بها كسائر الغرائز ، وإنما هى صفة اكتسبتها ، تحصّلت لها عما بثته التقاليد الاجتماعية والتعاليم الدينية ، بدليل اختلاف المجتمعات فى ذلك درجة . وقد جعل بعض الباحثين من ذوى النزعة الاشتراكية ضعف المرأة وخضوعها المطلق للرجل وعدم قدرتها على كشف مخبوءات نفسها ، من مظاهر اغترابها فى المجتمعات الشرقية .[١٣٩] بينما يرجع بعض علماء النفس استحياء المرأة وشدة تكتمها - كما أسلفنا القول - إلى أثر العاملين البيولوچى والاجتماعى معا .[١٤٠]

احتراس المرأة عامة والشرقية خاصة ، حقيقة لا يُمارى فيها ، والعامل الاجتماعى فى ذلك قوى الأثر . وقد نما هذا الاحتراس وتطور إلى خوف يتملك نفس المرأة ، أجاد الشعر العربى عرض مظاهره وبيان درجته . يصف إيليا ما يساور محبوبته من هذا الخوف فيقول :[١٤١]

قد رُوِّعتْ حتى لتخشى بُردها ... من أن يبوح بسرها المكنونِ

وتريبـها أنفاسـها ويخيفـها عنـد اللـقاء تنـهُّد المحزونِ

ويصوّر ناجى أحد مظاهر هذا الخوف بقوله :[١٤٢]

مرّ الغريبُ فباعدت يـدها وخلا الطريق فقرّبتْ فمها

والمرأة من خلال ما تبديه من شدة الاحتراس والاستحياء ، راغبة فى الإبقاء على صورتها الاجتماعية مَرضيّة الملامح ، فضلا عما يمليه عليها التزامها الأخلاقى والدينى من ضرورة اتّباع هذا المسلك .

لقد كان الرجل الذى سنّ للمرأة تقاليدها ورسم حدود أعرافها ، أول من أعلن شقاءه بما وضع وسنّ ، وذلك لارتداد هذه القوانين والأعراف عليه بما تكره نفسه وتضيق به . فآلمه ما يحُس من تأبّى المرأة وصدودها ، وهو يعلم أن هذا خُلق يمتدحه المجتمع ويحث عليه ، ويشُرف به العاشق ذاته متى وجده حلية تتزّين بها نساؤه . وهنا يرى الباحث (ازدواجيّة) فى مسلك هذا الرجل المحب ، فهو من جهة يبالغ فى المحافظة على محارمه ، ومن جهة أخرى يحث غيرهن على كسر الطوق الخُلقى والإطار الاجتماعى .

أيا ما كان أمره ، فقد بلغ شقاؤه بما شرّع من قديم ، إلى حد أن وجد نفسه فى حيرة أمام المرأة التى يحبها ، لا يستطيع تبيّن حقيقة إحساسها وعمق عاطفتها . وقد عبّر رامى عن حيرته واختلاط الأمر عليه فقال :[١٤٣]

وأما إن سئلتُ هل اصطفتنى سكتّ فما استرحتُ وما أريحُ

ويصف الرافعى ما يراه فى مسلك المرأة معه من مفارقة غريبة تجعل الأمر يلتبس عليه ، فيقول :

" وقد تعذّبه فى بعض دلالها أشد العذاب ، وهى تحبه حبا ليس عليه صبر ، كما كانت تفعل لو أنها كانت تبغضه بغضاً ليس فيه مبالاة ، وبذلك تجمع عليه الشبهة والحقيقة".[١٤٤]

إذن لا عجب فى أن تبالغ المرأة فى تكتم أمرها وإخفاء لواعجها ، أو فى أن تُعرض فتشتد فى إعراضها ، خوفا من أخذ السلطة لها : اجتماعية أو شرعية . لكن حين تصبح هذه المرأة زوجة مَنْ تحب ، يكون لها معه شأن آخر . ولعل حديث الجعْد بن مُهْجَع العذرى العاشق مع صاحبته ، خير ما يصوّر إسماح المرأة حين تحس الأمان وتنأى عن الشبهات . فقد كان يشكو كغيره من بخل صاحبته وجفوتها . فلما صارت له زوجا وضمهما بيت واحد قال بشأنها :

" أبدت لى والله كثيرا مما كانت أخفت عنى يوم لقيتها ، فسألتها عن ذلك فأنشأت تقول :[١٤٥]

كتمتُ الهوى لما رأيتك جازعـــا ... وقلتُ فتىً بعضَ الصديق يريـدُ
وأن تطرحَنـى أو تقـول فُتيـّة ... يَضُر بها بـرْح الهـوى فتعـودُ
فوزّيتُ عما بى وفى داخل الحشى ... من الوجـد بُرح فاعلـمنّ شديدُ

وفى حوار آخر يصف لنا (رفيق النای) ما تحسّه المرأة من هذه المخاوف فيقول :[١٤٦]

وقلتُ : (زُهيرتى) رِقّـى ... غريبٌ جئتُ (للثـغرِ) (*)
وذا آذارُ شهرُ الحـبّ ... شهرُ الجودِ بالنَّـشْرِ
فقالت : شاعـرٌ لاهٍ ... يبث الحب فى صـدرى
بقولٍ راقـصِ الألـفا ... ظِ فى الإسكارِ كالخمرِ
أخاف اليوم تـسبينى ... بما تأتيه مِـن سـحرِ
وتتركنى ولا سلـوى ... تعزّينى عـن الشعـرِ
فقلت : زهيرتى الحسنا ... ءَ لا تخشَىْ من الغـدرِ
أليفُكِ حافـظٌ للعهـد فـى الإسـرار والجـهرِ
فلان أبيُّـها العاصـى ... وفاحت بالشذى البِـكْرِ

(*) الثغر : الإسكندرية .

وقد وصف الشعر العربى على امتداد عصوره حرص المرأة وحذرها . والمعروف من أمر بثينة أنها كانت تبادل جميلا حبا بحب ، لكنها فى الوقت نفسه تعى كل ما حولها من حوائل الدين والقيم السائدة . ولهذا كانت تقيس تصرفاتها وتحذر كل ما ينم عن سرها ، وقد شرح جميل مخاوفها فى شعر كثير له ، كقوله لها:[١٤٧]

هل الحائم العطشان مُسقىَ بشربةٍ ... من المُزْن تروى مابه فتُريحُ
فقالت: فنخشى إن سقيناكَ شربة ... تخبّر أعدائى بها فتبوحُ

وقوله عنها تعتذر له :[١٤٨]

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... وقد قرّبت نِضوى : أمصر تريدُ؟
ولا قولها: لولا العيون التى ترى ... أتيتُك فاعذرنى فدتك حدودُ

كما يذكر لنا كيف كانت ترسم له خطة إخفاء أمرهما عن أعين الرقباء ، فتقول له ضمن نصائح كثيرة :[١٤٩]

وطرفك إما جئتنا فاحفظنّهُ ... فزيغ الهوى بادٍ لمن يتبصّرُ
وأعرض إذا لاقيتَ عينا نخافها ... وظاهر ببغض إن ذلك أسترُ

فيجيبها إلى أكثر مما طلبت قائلاً :

سأمنح طرفى حين ألقاكِ غيركمْ ... لكيما يرَوْا أن الهوى حيث أنظرُ
وأكنى بأسماء سواكِ وأتقى ... زيارتكم ، والحب لا يتغيّرُ

لكن بثينة التى جاهدت لإخفاء حبها وإسكات صوته الصارخ فى أعماقها ، حتى وصفها جميل في شعره بأنها (صلود) ـ لم تملك أن انهارت حين أتاها نعيّه وأفشت فى صرخة ملتاعة ما جاهدت السنين فى إخفائه :[١٥٠]

وإن سلوّى عن جميلٍ لساعةٌ ... من الدهر ما حانت ، ولا حان حِينُها

سواءٌ علينا يا جميل بن معمر إذا مـــتَّ بأســـاء الحياة ولينـــها

ولم تتماسك ليلى الأخيلية أيضاً يوم أتاها نعيُ (توبة) ، وقد كانت تحت رجل آخر ، فبكته ورثته رثاء كثيراً عددت فيه مناقبه ومظاهر رجولته ، وكان مما قالت :[١٥١]

وأقسمتُ أبكي بعد توبةَ هالكا وأحفل من نالت صروف المقادرِ

وما فعلته بثينه وليلى الأخيلية ، فعلته عفراء حين مات عروة .[١٥٢] كما يذكر صاحب الأغانى فى هذا الموضوع أخباراً أخرى ذات طابع رومانسى مفرط فى الخيال ، تحس فيها كثيراً من التزيّد والافتعال .[١٥٣]

لقد كانت زوجة عزيز مصر نموذجاً لكل امرأة تعلن عن شغفها بطريقة غريبة على طبع المرأة ووضعها الاجتماعى ، فراودت يوسف عن نفسه ، وغلّقت الأبواب وقالت : هَيت لك . وهى حين فعلت ذلك كانت تظن نفسها بأمن من اطلاع الناس على سرّها . فلما وجدت نفسها فى مأزق ، سرعان ما نفت الشبهة . " وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يُسجن أو عذاب أليم "[١٥٤]

وحين اتضح أمرها لم تسلم من مؤاخذة المجتمع لها حتى بنات جنسها "وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاشى لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذ لكن الذى لمتنّنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين "[١٥٥]

وهى قد نجحت فى إسكات أصواتهن ، بل كان تقطيعهن أيديهن إقرارا

وتبرئة لها ، واعترافا عمليا بأن ما فعلته خارج حدود طاقتها البشرية . وكل عاشق يتمنى أن تكون محبوبته مثل امرأة العزيز فى إعلان الهيام به و إفصاح عنه بلا ضوابط .. ومن هنا جاء اتهام المرأة بالبخل والمماطلة فى إنجاز الوعد .

* أما التفسير النفسى لهذه الظاهرة ، فقد ذكرنا فى موضع سبق رأى علماء النفس فيه[١٥٦] ولا يبقى سوى أن نذكر ما جاء منه على ألسنة الأدباء ، وهو بحكم الخيال الأدبى شىء آخر مختلف عما ذهب إليه علماء النفس ، ينم عن هذه الرؤية الأدبية العاطفية ذات المنحى الخاص فى تحليل نفس المرأة .

ولعل أكثر ما نلقاه في الشعر العربى من هذا التعليل ، قولهم عن المرأة حين تدرك أنها استرقت إحساس الرجل واستحوذت على اهتمامه ، يداخلها شىء من الغرور فتصد عنه . وقد تواتر الحديث فى هذا الأمر وكثر ، حتى عُدّ أهم الأسباب النفسية التى تجعل المرأة لا تبدى اهتماما بالرجل يتعلّق بها وقديما قال جميل معللا بخل بثينة :[١٥٧]

إذا فكّرت قالت : قد ادركت ودّه وما ضرّنى بخلٌ ففيم أجودُ ؟!

وبخلها لم يكن بسبب أنها أدركت ودّه فحسب ، وإنما لأنه قدّم لها من ضمان الحب وعهوده دون مقابل ، ما يشعرها بشدة قبضها زمام نفسه :[١٥٨]

ضمنت لها ألاّ أهيم بغيرها وقد وثقت منى بغير ضمانِ

يريد ، بغير ضمان تقدمه إليه . عطاء مطلق من جانب ، يؤدى إلى تقتير فى الجانب المقابل . ورامى يعلل دوما ما يعانيه من آلام الهجر وعذاب الحب بإفراطه فى إبداء شعوره وكثرة تسامحه وصبره على جفوتها :[١٥٩]

دببتِ إلى طبعى فغركِ أننى سموحُ ، وأنى صابرٌ لك شاكِ

وقديما شكا امرؤ القيس هذا الطبع عند المرأة ، ولعل هذه الشكوى أول وآخر ما نجد من ذلك في شعره :[١٦٠]

لتغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعلِ

ولهذا راح عمر بن أبى ربيعة يقدم نصيحة مجرّب خبير بأدواء المرأة ، يرسم فيها للرجل خطته ومسلكه :[١٦١]

لا تجعلنْ أحداً عليك إذا أحببتَه وهويتَه ربا
وصِل الحبيب إذا كَلِفتَ به واطوِ الزيارة دونه غِبا
تلك خيرٌ من مواظبةٍ ليست تزيدك عنده قُربا
لا ، بل يملّك حين تطلبهُ فيقول (هاءِ) وطالما لبّى

ونصيحة عمر بن أبى ربيعة التى يسديها إلى المحبين ، تمثل منهجا عاما فى التعامل بين كل الناس ، وإن كانت فى نظره - أحق بالاتباع فى علاقة الرجل بالمرأة لما يلقاه من جَراء إفراطه فى إبداء حبه وشدّة تعلّقه .

ومن الأسباب النفسية التى كثرت فى حديث الشعراء ، يعلّلون بها ، انشغال المرأة عنهم ، كثرة ما تراه من تهافت الرجال عليها وإعجابهم بها . فإن هذا يملؤها بالخيلاء والعُجب ، حتى إنها لتصدّ عنهم جميعا ، فلا تسكن لها عند أحدهم نفس . ولا أرانا فى حاجة إلى شواهد ذلك ، لشيوعه فى الشعر العربى على اختلاف عصوره .

ولقد نحا بعض الكتاب فى تأويل مسلك المرأة بين إقبالها وإعراضها ، منحى فلسفيا فيه طرافة ، فراح ابن حزم يعلل عدم التكافؤ بين المتحابّين فى تبادل الحب وإظهار العاطفة ، بأن المُحب يكون كالمغناطيس أقوى فى الجذب ، فالحركة فى إبداء العاطفة تكون من الأقوى .[١٦٢] كما راح يوزع تكاليف الحب على الطرفين ، فألقى على عاتق المُحب العبء الأكبر وعدّ ذلك واجبا عليه . يقول : " واعلم أن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب ، لأن المحب هو البادى باللصوق والتعرّض لعقد الأذمّة ، والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى

صحة العشرة ، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيّد نفسه بزمام المحبة ، قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام . فمنْ قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه ؟! ومَنْ أجبره على استجلاب المِقة إن لم ينوختْمها بالوفاء لمن أراده عليها ؟! والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه ومخيّر فى القول أو الترك ، فإذا قبل فغاية الرجاء وإن أبى فغير مستحق للذم ... وعلى المحبِب إن ساواه(*) فى المحبة مثل ذلك وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه فى درجته ... وليقنع (**) بما وجد وليأخذ من الأمر ما استدفى (سهل) ، ولا يطلب شرطا ولا يقترح حقا وإنما له ما سنح بخدّه أو ما حان بكده "(١٦٣)

ومقولته هامة ، ويحّمل فيها (المحب)وحده تكاليف هذه العلاقة التى سعى فى إنشائها ، فليس من حقه أن يطالب محبوبه بالاستواء معه فى درجة حبه ، أو يغضب إذا لم يفعل . وفى المجتمعات العربية والإسلامية والسرقية بعامة ، يكون الرجل هو البادىء بإعلان عاطفته ، الساعى بمودّته ، ومن ثم كان عليه أن يحمل كل أعباء هذه العلاقة دون أن يضجر أو يشترط على محبوبته تكافؤا .

ولم يقتصر ابن حزم على ذلك ، فنراه فى مقولة له أخرى ، كأنما يدعونا إلى عدم تصديق ما نسمع من شكوى المحب ، وما يبدو بينه وبين محبوبه من مظاهر النفرة والمغاضبة ، بل يحملنا على تأويل ذلك تأويلاً حسنا ، حين يذهب إلى أن ذلك علامة على تمكن الحب منهما . يقول : " ونجد المحبيْن إذا تكافيا فى المحبة وتأكدت بينهما تأكدا شديدا ، أكثر بهما جدّهما بغير معنى ، وتضادهما فى القول تعمدا ، وخروج بعضهما على بعض فى كل يسير من لأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأوّلها على غير معناها " .(١٦٤)

(*) ، (**) أى المحب .

ولا أرى الأستاذ الرافعى فى تعليله جفاء المرأة وإعراضها إلا متأثراً نظرة ابن حزم السابقة يقول :

" قد تشتمك مَنْ تحبها لأنها تحبك وتعزك ، ويأبى لها شعورها بكبرياء الحب إلا أن تنبذ لك بلفظة متكبرة ، وهى قد وثقت أنها تخصّك منها بمعنى ما. وقد تُعرض عنك من دون الباقين ، لأنك وحدك الآمر والناهى المتسلط عليها ، فهى تخصك من إعراضها بهدية . وقد تُعالنك بأشد البغض وتدع قلبك يشبّهها لك مراغمة جافية متعسرة غليظة الكبد ، لا من بغضة ولا جفاء ولا معاسرة ولا غلظة ، بل من أنك أذللتها بهواك ، فكل ما تشتمك به إنما تتأوّه فيه "[١٦٥]

وقد عالج هذا المضمون فى أكثر من موضع كقوله عن العاشق : "وتراه يبغض بأقوى ما فى نفسه فلا يكون ذلك إلا إخفاء لأضعف ما فى قلبه " .[١٦٦]

بعد ما ذكرناه فى تعليل إعراض المرأة وجفوتها ، واحتياطها فى اللفظ تنطق به وفى الفعل تأتيه ، يسأل قارىء الأدب العربى نفسه : هل صحيح كل ما نسب الشعراء والأدباء عامة إلى المرأة من ذلك ، وإن كان له ما يبرره اجتماعيا ونفسيا ؟!

الذى أراه أن كثيراً من ذلك محض خيال ، يلهب به العاشق عواطفه ، شاعرا أو غير شاعر ، وتوهّم يسكبه وقودا فى أتون حبه ليزداد اشتعالا . وقد دأب الشعراء العرب منذ زمن قديم على تصوير العلاقة العاطفية طريقا مليئة بالصعاب والأشواك سواء تسببت المرأة فى ذلك أو تسببت الجماعة ، فالحب حين يتحول إلى مغامرة وارتياد صعب ، يكون أكثر إثارة ، وأدعى إلى إحساس المحب بقيمته وسعيه إلى المحافظة عليه . ومن ثم يحلو للشاعر أن يختلق ما لم يجده من عقبات الحب وصعابه فيُكثر حوله العاذلين ، ويقيم حول ديار محبوبته الأحراس ، ولا يبقى أمامه إن سلم حبه من هؤلاء وأولئك إلا أن يصف محبوبته بالإعراض والصد

فإذا لم تكن شكوى الرجل صادرة عن مثل هذه الرغبة النفسية والخيال الشعرى ، فإنها قد تعلل بميل النفس إلى الاستزادة من كل ما يلذ لها وعدم قناعتها بما يسنح لها من وصل المحبوبه على نحو ما يقول النشّار :[١٦٧]

وكل حبيبٍ وإن كان :انى الوُد يُحسَب جافيا

كل المحبين يتمنّون أن تكون محبوباتهم كما ذكرنا مثل امرأة العزيز فى إبداء أشواقهن ، ومنهم من يرغب فى تحويل هذا الهيام من عاطفة إلى مسلك عملى يخمد بين جنبيه جذوة متّقدة ، فإذا لم تُقدم المرأة على شيء من ذلك اتُّهمت بالشح في عاطفتها والإعراض فى مسلكها . وقد أنصف على محمود طه المرأة حقا حين قال لمحبوبته :[١٦٨]

واللـــه ما أعرضْتِ بل جنّبتِنى شطط الهوى وسموتِ عن أغراضى

فالعاشق الذى لا يرعوى ولا يكاد ينهنه نفسه ، تقف المرأة حائلاً دون رغبته فيدّعى ما يدّعى من أمر بخلها وتقتيرها . ولنختتم بهذه المقولة لابن حزم مناقشة هذا الجانب . يقول :

" وعنّى أخبرك أنى ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادتني إلا ظمأ ... ولقد بلغتُ من التمكّن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتنى إلا مستزيدا . ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة . ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنت أحب ، فلم أُجِل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصّرا عن مرادى وغير شافٍ وجدى ولا قاض أقل لُبانة من لباناتى . ووجدتنى كلما ازددت دُنُوا ازددت وُلوعا " .[١٦٩]

**

الخاتمة

هذه هى المرأة التي ملأت قلب الرجل عاطفةً ، وتنوّعت على لسانه حديثا وفنّا . دنت منه وأضاءت نفسه بالأمل ، فانطلق يتعجّل غده ليبنى فوق ربواته الخضر شواهق أحلامه ، ثم صدّت عنه فانطفأت وقدة عزمه ، وراح يتخوّف هذا الغد ويدبر ظهره للحياة .

هذه هى المرأة التى تسيّدها الرجل اجتماعيًا بقوته ، وبما جعل له عليها من القوامة ، وامتلكت هى زمام نفسه ونياط قلبه محبوبةً ، فتعادلت الكفّتان ، إن لم يرجح تأثيرُها تأثيرَه فى كثير من المواقف ، مُعلنةً وغير مُعْلَنة . وهى منذ خلقها الله ، هَمّ الرجل وشغله ، وقد تأخذ من فكر بعض الرجال وإحساسهم أكثر مما تأخذ ضرورات العيش ومطالب البقاء ، إن لم تستحوذ على كل اهتمامهم فتصرفهم إليها عن التفكير فى ذلك كله .

وإذا كان الشعراء القدامى قد تحدثوا عن المرأة ، فإن حديثهم كما أوضحنا ، كان بمثابة إطار جمعوا فيه كثيرا من الملامح الحسّية التى تشدّهم إليها وقليلا جدا يبلغ حد الندرة من جمالها المعنوى وفضائلها الخلقية ، فبدوا مأخوذين بجمال الصورة أكثر مما تخفيه من حُلى النفس وجمال الروح . وبدا حديثهم المعاد عنها فى مطالع قصائدهم كأنه مُثيرات الشهية التى تقدّم للطاعم فى بعض البلدان قبل الأكل ، يستهل بها فتتفتح شهيته لما سيعرض عليه من صنوف الطعام . فلما بدت ظاهرة الحب العذرى لفتت الأنظار لأنها طرقت الأسماع بصوت جديد لم يألف الناس سماعه ، أو كانوا يسمعونه على مسافات متباعدة من الزمن خافت النبرة لايكاد يبين . فلما تواصل هذا الصوت واشتد على ألسن العذريين ، تنبّه الناس إلى أن هناك تعلقا آخر بالمرأة ، أهم وأبقى مما تعوّد الشعراء الحديث عنه ، يرتفع فيه المحب بمحبوبته إلى أجواء عالية تتناجى فيها الأرواح متخففة من أثقال البدن ورغبات الجسد .

وفى العصر الحديث ، نقرأ فى شعر المحافظين ما يعيد أمامنا صورة المرأة التى كرّس الشعراء القدامى جهودهم فى إتقان ملامحها الحسّية ، وإن كان هؤلاء المحافظون قد هذّبوا بعضا من ملامحها وحذفوا بعضا آخر . وبرغم ما أولوْه المرأة من اهتمام بقضاياها الاجتماعية ، وسعى إلى نُصْفتها ، لم يستطيعوا الارتقاء بشأنها شريكةً لهم فى عاطفة خاصّة ، حتى إننا لانكاد نعثر عند واحدمنهم على ملامح تجربة روحية كاملة ، تذكرنا بشىء مما قال العذريون فى شرح أشواقهم . ولقد تناولت فى حديثى عنهم ما كان لكلّ من الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، والدكتور زكى مبارك ، من دور فى الحديث عن عاطفة الحب وصفًا وتحليلا وتعليلا . ثم ذكرت كيف وُفّق الرافعى فى ذلك وكيف عجز الدكتور زكى مبارك عن إرساء قواعد مذهبه الوجدانى التربوى الذى اعتزم تأسيسه فى الأدب العربى الحديث .

ولقد كان حديث الرومانسيين بعثا لأشواق العذريين التى اختفت قرونا طويلة . وقد زاد الرومانسيون على أسلافهم ، بأن لوّنوا عاطفة الحب العذرى بأصباغ ذواتهم الحادة المزاج ، المرهفة الإحساس ، المستوفزة الخيال ، السوداوية النظرة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فتحوّل هيامهم بالمرأة إلى تيه من هيام النفس بالجمال المطلق الذى يحيط بها من جميع أقطارها فلا تحدده ولا تعلله . ولهذا جاء حديثهم عن المرأة كأنه حديث عن الجمال الكونى لواسع المتنوع .

ولئن كانت المرأة بضعا من الرجل ، فإن هذا الرجل قد وقف أمام بضعه الذى خُلق خلقا آخر متأمّلا ، متحيّرا كأنما هو بإزاء كائن غامض الأسرار مبهم الطباع، لايقدر على اختراق سطحه والنفوذ إلى داخله . وحين أراد الرجل أن يصف طباع المرأة ويجلو شيئا من أسرارها ، لم يصف إلاّ ما توهّمه فيها أو ما لاحظه عليها ، أو ما سمحت هى له بالاطلاع عليه فى تجاربه العامة معها أو

الخاصة . وقد ترك الشعراء فى وصف إحساسهم تجاه ما عرفوا وما توهّموا من طباع المرأة وغرائزها من المعانى والصور ما أثرى عاطفة الحب . ولولا ماقيل فى طباع المرأة ، لخسرت لغة الحب ينابيع ثرّة تُرقرق ماءها وتمدّ أفنانها . فإحساس الرجل مثلا بقلّة عطاء المرأة وشدة احتراسها فى مودّتها ، جعله يكثر من المقابلة بين كثرة مايبذل وقلة مايأخذ ، كما جعله يذهب فى تعليل ذلك مذاهب شتى بحسب ما يتراءى لخياله ، أو ماينا سب موقفها منه . وإحساس الرجل أيضا بأن المرأة قد تدل عليه بجمالها وحُسن شكلها ، حرّك نفسه لمواجهة ذلك فشرع يمجّد فضائلها الروحيّة ويعليها على حُسن الطلعة والرونق . ولم يكتف بهذا فراح يشكّكها - كما ذكرنا - فى جدوى هذا السلاح ، ويحذرها من خطر الاعتماد عليه .

وبعد ، فقد اتضح من هذا البحث أن عاطفة الحب عاطفة جادة ، إما أن تدفع بصاحبها وتفتح نوافذ الأمل أمام عينيه ، أو تسقط من عزمه وتجلّل بالقتام رؤيته . ولعلى أكون قد سطّرت فى سفر الحب الكلمة الجديدة التى وعدت ، فإن لم يكن الأمر كما تمنيتُ فعزائى أننى اجتهدت :

مُنىً إن تكن حقاً ، تكن أطيب المنى وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغْدا

والله المستعان

هوامش المبحث الثالث

(١) د. زكريا إبراهيم ، سيكولوجية المرأة (دار مصر للطباعة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) ص ٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٥٢

(٣) المرجع نفسه ص ٦٣

(٤) المرجع نفسه ص ٨٣

(٥) المرجع نفسه ص ٤٦ ، ٥٢

(٦) المرجع نفسه ص ٨٨ ، ٨٩

(٧) ديوان جميل ص ٩٠

(٨) حسين فوزى ، المرأة وآراء الفلاسفة (دار الفرجانى ـ القاهرة سنة ١٩٨٣) ص ٤٠ ، ٣٦ ، ٦٤

(٩) المرجع السابق ص ١٢

(١٠) المرجع نفسه ص ١٨

(١١) المرجع نفسه ٧٦

(١٢) المرجع نفسه ص ١٩

(١٣) انظر النصوص الثلاثة على الترتيب فى : أوراق الورد ص ١٧٩ ويتيمة الدهر ج١ ص ٨٦ وأحمد تيمور ، الحب عند العرب ص ٥٩ .

(١٤) أوراق الورد ص ١٤٦

(١٥) المرأة وآراء الفلاسفة ص ٦٤

(١٦) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ١٠

(١٧) المرأة وآراء الفلاسفة ص ٦٢

(١٨) المرجع السابق ص ٦٢

(١٩) المرجع نفسه ص ٦٤

(٢٠) المرجع نفسه ص ٦٣

(٢١) المرجع نفسه ص ٦٣

(٢٢) المرجع نفسه ص ١٨

(٢٣) المرجع نفسه ص ٦٤

(٢٤) المرجع نفسه ص ٦٢

(٢٥) المرجع نفسه ص ٦٢

(٢٦) المرجع نفسه ص ٥٨

(٢٧) الأغانى . ج١١ ص ١٨٩ .

(٢٨) المرجع السابق ص ١٩١

(٢٩) المرجع نفسه ص ١٧٦

(٣٠) النابغة الذبيانى (زياد بن معاوية) ديوان النابغة شرح عباس عبد الساتر (دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٩٨٦ م) ص ١٠٩

(٣١) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ٧ وانظر باب "الموت" ص ١٤٠

(٣٢) إيليا أبو ماضى ، ديوان أبى ماضى تقديم سامى الدهان (دار العودة ـ بيروت ـ بدون تاريخ) ص ٥٤٧

(٣٣) انظر حديث (چينا لمبروزو) ص ١٥١ من هذا البحث .

(٣٤) من أمثلة ذلك وغيره كثير قول الرسول ص « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » .. كتاب النكاح - باب الأكفاء فى الدين ج٦/١٢٣ صحيح البخارى - (مطبعة استنبول سنة ١٩٨١م) .

(٣٥) د. محمد عوض خميس ، دفاعا عن المرأة (العربى للنشر ـ القاهرة سنة ١٩٨٥) ، انظر ص : ٢٩ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٣

(٣٦) أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق محمد عبده عزام مجلدا (دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٧ م) ص ٣٩٧

(٣٧) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٩

(٣٨) المرجع السابق ص ١٠ ، ٣٩

(٣٩) جبران خليل جبران ، الأعمال الكاملة باللغة العربية ، تقديم ميخائيل نعيمة (شركة

التوزيع المتحدة بيروت - بدون تاريخ) ص ٢٦٠

(٤٠) على محمود طه ، ديوان على محمود طه (دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٨) ص ٢٩٤

(٤١) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ٦٢

(٤٢) عباس محمود العقاد ، ديوان العقاد ج١ ص ٣٢

(٤٣) ديوان جميل ص ٦٢

(٤٤) المرجع السابق ص ١٣٣

(٤٥) المرجع نفسه ص ١٠٨

(٤٦) المرجع نفسه ص ٢١٠

(٤٧) المرجع نفسه ص ٥٢

(٤٨) ديوان كثّير ص ٧٨

(٤٩) ديوان ابن الدمينة ص ١٤

(٥٠) المرجع السابق ص ١٦

(٥١) الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ج١ تحقيق إيليا الحاوى (الشركة الشرقية للنشر والتوزيع - بيروت سنة ١٩٧١م) ص-٦٥

(٥٢) ديوان جميل ص ١٦٣

(٥٣) المرجع السابق ص ٧٣

(٥٤) المرأة وآراء الفلاسفة ص ٤١

(٥٥) المرجع السابق ص ٤٦

(٥٦) ديوان رامى ص ١٢٦

(٥٧) المرجع السابق ص ١٣٦

(٥٨) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة ص ٦٢

(٥٩) عمر أبو ريشة ، ديوان عمر أبو ريشة م١ (دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٨ م) ص ٢١٩

(٦٠) مصطفى صادق الرافعى ، أوراق الورد ص ١٤٧

(٦١) أبو زيد القرشى ، جمهرة أشعار العرب ص ٣٦٦

(٦٢) ديوان رامى ص ١١٦

(٦٣) أبو العلاء المعرّى ، شروح سقط الزند ج٣ ص ٩٩٦

(٦٤) المرجع السابق ص ٩٩٦

(٦٥) ديوان جميل ص ١٨٧

(٦٦) شروح سقط الزند ج٢ ص ٦٥٤

(٦٧) يتيمة الدهر ص ٦٩٨

(٦٨) طوق الحمامة ص ٢١

(٦٩) المرجع السابق ص ٥٢

(٧٠) المرجع نفسه ص ١١٨

(٧١) المرجع نفسه ص ٧٧

(٧٢) ولى الدين يكن ، ديوان ولّى الدين يكن ط ١(مطبعة المقتطف والمقطم ـ القاهرة سنة ١٩٢٤م) ص ٩٧

(٧٣) مصطفى صادق الرافعى ، ديوان الرافعى ج١ ص ٤٢

(٧٤) المرجع السابق ص ٩٧

(٧٥) المرجع نفسه ص ٨٩

(٧٦) مصطفى صادق الرافعى ، رسائل الأحزان ص ٩

(٧٧) زكى مبارك أطياف الخيال ص ١٢

(٧٨) ديوان على محمود طه ص ٢١٤

(٧٩) ديوان رامى ص ١٥٨

(٨٠) المرجع السابق ١٣٨

(٨١) رسائل الأحزان ص ٧٢

(٨٢) المرجع السابق ص ٩٠

(٨٣) المرجع نفسه ص ٨٥

(٨٤) المرجع نفسه ص ١٨ ، وانظر ص ١٩ إلى ص ٢٤

(٨٥) شروح سقط الزند ج٣ ص ٤٣ ١

(٨٦) ديوان إيليا أبو ماضى ص ١٧٢

(٨٧) انظر حديث أم زرع بالمعجم الوسيط مادة "زرنب" .

(٨٨) ابن حزم طوق الحمامة ص ٥٠

(٨٩) ديوان ابن الدمينة ص ١٣

(٩٠) ديوان جميل ص ٢٠٤

(٩١) المرجع السابق ص ١١٩

(٩٢) مصطفى صادق الرافعى ، أوراق الورد ص ٥٦

(٩٣) ديوان ناجى ص ٤١

(٩٤) المرجع السابق ص ٥٧ ، ٤٢

(٩٥) ديوان رامى ص ١٣٣

(٩٦) المرجع السابق ص ١٣٨

(٩٧) ديوان عمر أبو ريشة ص ١٧٤

(٩٨) المرجع السابق ص ٢٤٠ ، ٢٣٧

(٩٩) فاروق جويدة ، كانت لنا أوطان (مكتبة غريب ـ القاهرة سنة ١٩٩١ م)ص ٣٤

(١٠٠) ديوان إيليا أبى ماضى ص ٣٩٥

(١٠١) ديوان الزهاوى ص ٩

(١٠٢) عمر أبو ريشة ، لِمن ؟ ص ٦٤

(١٠٣) ديوان العقاد ج٢ ص ٢٦٠

(١٠٤) المرجع السابق ص ١٨٣ ، قوله :

يا باخلين أضعتم من حسنكم ما تمنعونا ... إلخ النص

(١٠٥) ديوان المتنبى ج٣ ص ١٤٩

(١٠٦) عبد اللطيف النشار ، ديوان النشار (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٧٤) ص ١٤٢

(١٠٧) زكى مبارك ، أطياف الخيال ص ١١

(١٠٨) المرجع السابق ص ١٢

(١٠٩) ديوان ناجى ص ٦٢

(١١٠) انظر ص ١٥٢ ، ١٥٧ من البحث

(١١١) محمود حسن إسماعيل ، هكذا أغنى ص ١٥٢

(١١٢) ديوان رامى ص ١٣٣

(١١٣) ديوان أبى ريشة ص ٢٠٩

(١١٤) ديوان أبى تمام ج١ ص ٣٩٧

(١١٥) ديوان المجنون ص ٢٦

(١١٦) مصطفى صادق الرافعى ، أوراق الورد ص ١٤٢

(١١٧) أحمد شوقى ، مجنون ليلى ، ص ٨٦

(١١٨) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ٧

(١١٩) مصطفى صادق الرافعى ، أوراق الورد ص ٣٠٥ ، ٣٠٦

(١٢٠) ديوان الرافعى ص ٦٨

(١٢١) أوراق الورد ص ١٦٩

(١٢٢) ديوان ابن الدمينة ص ١٥

(١٢٣) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ١٢

(١٢٤) أحمد شوقى : الشوقيات ج١ ص ٢٤٢

(١٢٥) ديوان الرافعى ج١ ص ٨١

(١٢٦) ديوان على محمود طه ص ٢٤

(١٢٧) ديوان ناجى ص ٦٨

(١٢٨) عبد العليم عيسى ، بعض نفسى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٩٢) ص ٩٤

(١٢٩) أشعار الستة الجاهليين ص ٢٥٦ والبيت من معلقة طرفة

(١٣٠) زكى مبارك ، أحلام الحب ص ٤٥

(١٣١) زكى مبارك ، أطياف الخيال ص ٨٨

(١٣٢) ديوان ابن الدمينة ص ١٥

(١٣٣) مصطفى صادق الرافعى ، رسائل الأحزان ص (ح) .

(١٣٤) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب ص ١٤٧

(١٣٥) ديوان إيليا أبى ماضى ص ١٧٣

(١٣٦) أوراق الورد ص ١٤٦

(١٣٧) المرجع السابق ص ١٤٦

(١٣٨) المرجع نفسه ص ١٤٦

(١٣٩) محمد عوض خميس ، دفاعا عن المرأة ص ١٥٢

(١٤٠) انظر ص ١٤٦ من البحث

(١٤١) ديوان إيليا أبى ماضى ص ٧٢٢

(١٤٢) ديوان ناجى ص ٢١٩

(١٤٣) ديوان رامى ص ١٥٢

(١٤٤) أوراق الورد ص ١٤٧

(١٤٥) الأغانى ج١١ ص ١٨٩

(١٤٦) السعيد عبد الله ، الشراع الممزق (مركز الدلتا للطباعة ـ الإسكندرية سنة ١٩٩٢ م) ص ٢٢

(١٤٧) ديوان جميل ص ١٠

(١٤٨) المرجع السابق ص ٦٢

(١٤٩) المرجع نفسه ص ٩٠

(١٥٠) المرجع نفسه ص ١٨٤

(١٥١) الأغانى ج١١ ص ٢٢٨٠

(١٥٢) داود الأنطاكى ، تزيين الأسواق ج١ ص ٨١

(١٥٣) الأغانى ج١١ ص ٢٤٤

(١٥٤) سورة "يوسف" الآية ٢٥

(١٥٥) سورة "يوسف" ، الآيات : ٣٠ ـ ٣٢

(١٥٦) انظر ص ١٤٥ - ١٤٦ من البحث

(١٥٧) ديوان جميل ص ٦٢

(١٥٨) المرجع السابق ص ٢٠٤

(١٥٩) ديوان رامى ص ١٣١

(١٦٠) أشعار الستة الجاهليين ص ١١٥

(١٦١) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٥٤

(١٦٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ٩

(١٦٣) المرجع السابق ص ٩٥ ، ٩٦

(١٦٤) المرجع نفسه ص ١٧

(١٦٥) أوراق الورد ص ١٩١

(١٦٦) رسائل الأحزان ص ١٢١

(١٦٧) ديوان عبد اللطيف النشار ص ١٣١

(١٦٨) ديوان على محمود طه ص ٣٣٢

(١٦٩) ابن حزم ، طوق الحمامة ص ٧٤

* *

أهم المصادر والمراجع

(١) إبراهيم عيسى : شراع فى بحر الهوى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠٠٢م) .

(٢) إبراهيم ناجى ، الأعمال الكاملة (دار الشروق ـ بيروت ـ ١٩٨٨م)

(٣) أحمد تيمور ، الحب عند العرب (دار الكتاب العربى ـ القاهرة سنة ١٩٦٤م)

(٤) أحمد حسن الزيات ، رافائيل ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٣٤م)

(٥) أحمد الخوفى ، الغزل فى العصر الجاهلى (دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٦) أحمد رامى ، ديوان أحمد رامى (دار العودة ـ بيروت سنة ١٩٨٧م)

(٧) أحمد شوقى :

ـ الشوقيات ج١ ، ج٢ (مطبعة الاستقامة ـ القاهرة سنة ١٩٥٨م) .

ـ مجنون ليلى (المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة سنة ١٩٥٣م) .

(٨) أحمد عبد الستار الجواري ، الحب العذري : نشأته وتطوره (دار الكتاب العربى ـ القاهرة ـ بدون تاريخ)

(٩) أحمد محرم ، ديوان محرم (مطبعة الجريدة ـ القاهرة ١٩٠٨م)

(١٠) أحمد محفوظ ، حياة شوقى (مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) .

(١١) الأعلم الشنتمرى ، أشعار الستة الجاهليين (دار الآفاق الجديدة ـ بيروت سنة ١٤٨٣م)

(١٢) إيليا أبو ماضى ، ديوان أبو ماضى تقديم سامى الدهان (دار العودة ـ بيروت ـ بدون تاريخ)

(١٣) البارودى (محمود سامى) ديوان البارودى ، شرح على الجارم بالاشتراك (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١م)

(١٤) البحترى (الوليد أبو عبادة) ، ديوان البحترى ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفى (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧م)

(١٥) أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) ، الوحشيات ، تحقيق عبد العزيز الميمنى (دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٨٧م)

(١٦) الثعالبى (أبو منصور عبد الملك بن محمد) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر تحقيق إيليا الحاوى (الشركة الشرقية للنشر والتوزيع - بيروت سنة ١٩٧١م)

(١٧) جبران خليل جبران ، الأعمال الكاملة باللغة العربية ، تقديم ميخائيل نعيمة (شركة التوزيع المتحدة - بيروت - بدون تاريخ)

(١٨) جميل صدقى الزهاوى ، ديوان الزهاوى (المطبعة العربية - القاهرة ١٩٢٤م)

(١٩) جميل بن معمر ، ديوان جميل ، تحقيق د. حسين نصار (مكتبة مصر - القاهرة سنة ١٩٦٧م)

(٢٠) حافظ إبراهيم ، ديوان حافظ ، شرح أحمد أمين بالاشتراك (دار العودة بيروت - بدون تاريخ)

(٢١) ابن حزم (أبو محمد على) ، طوق الحمامة ، تحقيق د. نصر فريد بالاشتراك ، (المكتبة التوفيقية - القاهرة - بدون تاريخ) .

(٢٢) حسن كامل الصيرفى ، النبع (دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٢م)

(٢٣) د. حسين فوزى ، المرأة وآراء الفلاسفة (دار الفرجانى - القاهرة سنة ١٩٤٨م)

(٢٤) خليل مطران ، ديوان الخليل ، أربعة أجزاء (مطبعة دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٤٨م)

(٢٥) داود بن عمر الأنطاكى ، تزيين الأسواق (المطبعة الأزهرية المصرية - القاهرة سنة ١٣٠٢هـ)

(٢٦) ابن الدمينة (عبد الله بن عبيد الله) ديوان ابن الدمينة ، شرح محمد الهاشمى البغدادى (مطبعة المنار - القاهرة سنة ١٩١٨م).

(٢٧) الراغب الأصفهانى (الحسين بن محمد) ، محاضرات الأدباء ... (المطبعة العمومية - القاهرة - سنة ١٣٢٠هـ) .

(٢٨) د. زكريا إبراهيم ، سيكولوجية المرأة (دار مصر للطباعة - القاهرة - بدون تاريخ)

(٢٩) د. زكى مبارك :

- أحلام الحب ، (دار الزهراء للنشر - القاهرة سنة ١٩٨٩م)

أحمد شوقى ، (دار الجيل - بيروت سنة ١٩٨٨م) .

- أطياف الخيال ، (مكتبة مصر - القاهرة سنة ١٩٨٧م) .

- ليلى المريضة بالعراق (مكتبة مصر القاهرة سنة ١٩٨٩م)

(٣٠) أبو زيد القرشي (محمد بن أبي الخطاب) ، جمهرة أشعار العرب (دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٦م .

(٣١) د. شوقي ضيف ، البارودي : رائد الشعر الحديث (دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٨٨م)

(٣٢) عباس محمود العقاد ، ديوان العقاد (مطبعة المقتطف والمقطم - القاهرة سنة ١٩٢٨م)

(٣٣) عبد العزيز جويدة ، لا تعشقيني (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٢م)

(٣٤) عبد العليم عيسى :

- بعض نفسي (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٢م)

- ولهذا أنا أحيا الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٧م)

(٣٥) عبد اللطيف النشار ، ديوان النشار (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٧٤م)

(٣٦) عبد المنعم عواد، هكذا غنى السندباد (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣م)

(٣٧) أبو العلاء المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان) شروح سقط الزند ، تحقيق مصطفى السقا ، بالاشتراك (الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ١٩٨٧م)

(٣٨) على محمود طه ، ديوان على محمود طه (دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٨م) .

(٣٩) عمر بن أبي ربيعة ، ديوان عمر بن أبي ربيعة ، تصحيح بشير يموت (المطبعة الوطنية - بيروت - بدون تاريخ) .

(٤٠) عمر أبو ريشة ، ديوان عمر أبو ريشة (دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٨م)

(٤١) فاروق جويدة ، كانت لنا أوطان ، (مكتبة غريب - القاهرة سنة ١٩٩١م) .

(٤٢) أبو فراس (الحارث بن سعيد بن حمدان) ، ديوان أبي فراس ، جمع وتعليق د. سامي الدهان (نشر المعهد الفرنسي - دمشق - سنة ١٩٤٤م) .

(٤٣) أبو الفرج الأصفهاني (على بن الحسين بن محمد) الأغاني (دار الكتب المصرية - القاهرة - سنة ١٩٣٨م) .

(٤٤) أبو القاسم الشابى ، ديوان الشابى تقديم الدكتور عز الدين إسماعيل (دار العودة - بيروت سنة ١٩٨٨م) .

(٤٥) كمل أمين ، مصباح فى الضباب (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٢م)

(٤٦) كثير بن عبد الرحمن ، ديوان كثير (مطبعة هنرى بيرس ، باريس سنة ١٩٣٠م)

(٤٧) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) ، الفاضل ، تحقيق عبد العزيز الميمنى (دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٥٦م) .

(٤٨) المتنبى (أحمد بن الحسين) ديوان أبى الطيب ، شرح أبى البقاء العكبرى ، تصحيح مصطفى السقا بالاشتراك ، (دار المعرفة - بيروت سنة ١٩٧٨م).

(٤٩) مجنون ليلى (قيس بن الملوّح) ، ديوان المجنون ، جمع أبى بكر الوالبى (المطبعة الكبرى - القاهرة سنة ١٢٩٤هـ) .

(٥٠) د محمد عوض خميس ، دفاعا عن المرأة (العربى للنشر - القاهرة سنة ١٩٨٥م)

(٥١) د محمد غنيمى هلال ، الرومانتيكية (دار الثقافة - بيروت - بدون تاريخ).

(٥٢) محمود حسن إسماعيل ، هكذا أغنى ، (مطبعة النهضة ، القاهرة سنة ١٩٦٤م)

(٥٣) مصطفى صادق الرافعى :

- أوراق الورد ط٥ (مطبعة الاستقامة - القاهرة سنة ١٩٥٢م)

- ديوان الرافعى ج١، ج٢ شرح محمد كامل الرافعى (المطبعة العمومية - القاهرة ١٣٢٠هـ)

- رسائل الأحزان ط٢ (مطبعة الاستقامة - القاهرة سنة ١٩٤٠م).

(٥٤) مصطفى عبد الرحمن ، أغنيات قلب (الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٧م).

(٥٥) معروف الرصافى ، ديوان الرصافى (المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٩٥٩م)

(٥٦) النابغة الذبيانى (زياد بن معاوية) ديوان النابغة شرح عباس عبد الساتر (دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٦م).

(٥٧) ولى الدين يكن ، ديوان ولى الدين يكن (مطبعة المقتطف والمقطم - القاهرة ١٩٢٤م) .

**